الباب الثاني

الإطاحة

obeikandl.com

الفصل الأول

كبرياء يقود الى العصيان

شرعنا فى يوم من الايام ان نلعب كرة السلة . ولأن هذه اللعبة عنيفة نوعا نصر على ان يرتدى الصبيان ملابس اللعب حتى لاتتسخ ملابسهم العـــادية . وارتداء هذه الملابس غير مرغوب فيه كثيراً عند الصبيان لأنهم يفضلون ان يلعبوا من غير ان يكلفوا أنفسهم هذه المشقة . وماذا عليهم لو اتسخت ملابسهم العادية ؟ وهذا بالطبع لايروقنا كثيرا ولايعجبنا لأنه لايليق فى حد ذاته أولا ولأنه يضربهم ثانيا — ذلك لأنهم لايستحمون بعد اللعب ويخرجون الى الشارع والعرق يتصبب منهم فيأخذهم البرد . لهذه الاسباب جميعا قررت ان الصبيان لايلعبون هذه اللعبة من دون ان يرتدوا ملابس اللعب ، واصريت على تنفيذ هذا الامر مهما كلفنى ، اليس هذا لصالح الصبيان ولنظافتهم ووقايتهم من البرد ؟ هو كذلك واذن فلنفعله

يلاحظ القارىء ان هذا تعسف نوعا ما وان كان له مبرر من الاهتمام بصالح الصبيان ولكن الصبيان لايسعون وراء صوالحهم وانما يسعون وراء أهوائهم وشهواتهم ورغائبهم . والرغائب ملحة ملحفة تضغط نفوسهم فلايعودون يهتمون لشىء إلا لتحقيقها واشباعها ، ومتى تحكمت الرغبات والشهوات لايعود ينفع العقل أو المنطق وخصوصا مع الصبيان ، أما والامر كذلك فان من يقف فى سبيل هذه الرغبات والاهواء يعد متعسفا فى نظر هؤلاء الصبيان الذين لايستطيعون أن يروا الدوافع الحقيقية لتشدده فى الامر

وبالطبع أشعر بعد الاختبار ان هذا المسلك خطأ من جانبي ، بمعنى أنى

كشفت بصول الممارسه ومعاجة هؤلاء الصبيان انه يجب ان لا أقرر أمرا بطريقة تعسفية . حتى وان كان ما أقرره لفائدتهم المحضة . وهو فى الواقع كذلك . هو لفائدتهم من جميع الوجوه . ولكن هذا لايغير فى الامر شيئا . ولا يبرر أن ارتأى الرأى وانفذه من غيرأن يكون لهم رأى فيه . أستطيع ان أفعل هذا لأنى بحكم سنى ووظيفتى فى هذا المعهد أملك من الوسائل مايجعلهم يخضعون لهذا الرأى ويقبلون على تنفيذه فيسيرون على النظم المدرسية المعهودة فى بلادنا . أما ان فعلت هذا فانى أريح واستريح ولا يكون ثمة مجال للأخذ والعطاء . ويفهم الصبيان حدودهم ويقبلون أو يرفضون ثم يتحملون النتائج لهذا الرفض والقبول

ولكنى أقول ان هذا خطأ ليس لأن المربى يتعدى الحدود اذا أخذ بهذا المبدأ فقط بل لأن الصبى لايستفيد الفائدة الاخلاقية المرجوة من هذا التصرف . ويصبح خاضعاً لنظام مدرسى عسكرى يسلبه حق الاعتراض ويفرض ان لاحق له من هذا القبيل على الاطلاق . وما يفرض فيه إلا الخضوع والاستسلام

والحق ان هذا هو المبدأ السائد فى معاملتنا للصبيان وتجد ان كثيرين من الآباء والمربين عندنا لايرون له بديلا لا بل يظنون أن ماعداه فوضى لاتعدلها فوضى وان الاطفال لايعرفون الصالح من الطالح فيجب ان يحملوا حملا على مايزعم المربون والآباء أنه لفائدتهم

سرت اذن على هذا المبدأ فى بعض الحالات . ووجدت بالاختبار والممارسة ان هذا خطأ ، خطأ من هذه الوجهة وخطأ من وجهة النظريات الحديثة للتربية ، وعلى هذا يحسن بالمربين ان يعدلوا عن أمثال هذه الطرق التى لاتعود منها فائدة اخلاقية على أحد . والى القارىء بعض الحالات التى عرضت للمؤلف من هـــذا القبيل . والمؤلف عالجها بالطبع على الطريقه التى ربها . وافقة بغض النظر عما اذا كان الصبى مقتنعاً بصواب هذا العلاج أو غير مقتنع : وبمعنى آخر سرت على

الزعم انى ادرى فيجب ان انصح وارشد . وان الصبيان لايدرون فيجب أن ينتصحوا ويسترشدوا ويجب ان يعملوا بنصائحى وارشاداتى

نوينا ان نلعب كرة السلة اذن فطلبت الى الصبيان الراغبين فى اللعب ان يرتدوا الملابس الخاصة ، وكنت أسأل كل فرد بمفرده هل يريد ان يلعب فان أجاب بنعم طلبت اليه ان يرتدى ملابس اللعب وان أجاب بلا تركته لشأنه وسألت غيره وهكذا . دنوت اذن من صبي هو أكبر الأعضاء جسما وسنا ، وكان يبلغ السادسة عشرة من عمره سألته هل يحب ان يلعب أم لا . ولما أجاب بلا وأعتذر بأنه خارج لشأن من الشئون تركته لحاله

اجتمع لنا عدد من الصبيان فقسمناه الى فريقين وأخذوا يلعبون وأنا أحكم لهم ، وفى أثناء اللعب رجع الصبى الكبير وقال

— أنا أحب أن العب

— فقلت حسنا ، ارتد ملابسك وانضم للاعبين

— أحب أن العب بملابسى العادية لأنى سأخرج الى شأنى بعد حين

— كلا لا تلعب بملابسك العادية

— أرجو أن تصرح لى بذلك

— لا أصرح لك به

— أرجوك

— لا ترجونى فيما لايجدى ، أما أن تلبس ملابسك أو تبقى خارج الملعب لانى لا أسمح لك بأن تعطل هؤلاء الصبيان

— معلهش

تحرجت المسألة اذن ، وتوقف الصبيان عن اللعب ليروا كيف ينتهى هذا الفصل البارد ، ووقوف هؤلاء الصبيان وانتظارهم وتطلعهم للنتيجة عامل سيء فى هذه الظروف ، لأنه يقطع خط الرجعة على الصبى ويدفعه لأن يكابر ويندفع فى هذا السبيل الى آخر مداه ، أما من ناحيتى أنا فقد كنت أرحب بأى ظرف يشفع

لهذا الصبي ويقدم لى عذراً فى مسامحته وتركه لشأنه . ولكنه واقف فى الملعب لايريد الخروج منه . ويصرعلى ان يمعن فى هذا المسلك يفعل هذا وهويبتسم ويطل فى وجهى كأنه يرجونى ان لا أنظر الى هذا التصرف بشكل جدى . وبمعنى آخر كان لسان حاله يقول « لا تغضب لانى أمزح . ولكنى أرجوك أن تتسامح فلا تكسفنى أمام هؤلاء الصبيان لانى كبير ولأنهم يثقون بشجاعتى . ومركزى بينهم مركز الزعيم . فان فعلت شيئاً حازما . أو أصررت على رأيك فسوف لاينظرون الى بمثل ما كانوا يفعلون وأنزل فى أعينهم درجات »

هذا ما كان يوشك أن يقوله صراحة . وهذا ما كانت تترجم عنه نظراته الى فى وسط الملعب . ولكنى لم أعبأ لهذا ولم أرد ان أقيم له وزنا أو اعتبارا ، لانى لو فعلت لما كان ذلك الا على حساب ادارة المعهد وكنت أدفع من كرامة المعهد ثمنا لكبريائه ، فلا يستقيم فى عرف عاقل ان يعمل حسابا لكبرياء الصبي ويغفل كرامة العائلة أو المدرسة أو المعهد . خصوصاً وان الصبي ملوم ويستنكف ان يرجع عن غيه ومما زاد الحالة ضغثا على ابالة ان الصبيان جميعهم واقفون يشهدون وانهم مستعدون لأن يتعلموا الدرس الذى يلقى عليهم فى هذا الظرف

وما زادنى تشدداً فى هذا أنى كنت قد أطلعت عل جزء من تاريخ حياة هذا الصبي وعرفت بعض وسائله التى يستخدمها فى بيته لنيل مايريد ، فقد حضر الى أخوه الأكبر يشكو من تصرفه ويقول ان هذا الصبي عصبي المزاج جداً حاد الطبع الى درجة مروعة ، ومتى تشبث برأى واصر عليه فلن تستطيع قوة فى العائلة ان تنزله عنه لأنه يصرخ ويستجير ويركبه عفريت ويقلب المنزل رأساً على عقب ، وقد أوشك مرة أن يطعن نفسه بسكين لأننا لم نعطه سؤله للتو والساعة ، وكاد مرة أخرى أن يقذف بنفسه من النافذة ويدك عنقة لأننا ترددنا فى إجابته الى

ملتمسه . كل هذا يفعله . وأعظم من هذا يفعله . فلا يرده عما ينويه شيء . . . . انه عصبي جداً يا فلان افندي . . . . وقد ورث هذه العصبية عن جدته لأبيه لأم جدته . . . . لهذه الأسباب نصحت للعائلة أن لاتقف في سبيلة أو تعترضه بل تدعه لشأنه يفعل ما يروق في عينيه . . . . . والحمد لله لقد اتصحت العائلة وأخذت برأيي وسمعت مشورتي . . . . ثم تركناه لشأنه .

تذكرني هذه الظاهرة بظاهرة أخرى اجتماعية بليت بها بلادنا دون بلاد الله وهذه الظاهرة هي الزار . . . . الظاهر ان بعض نسائنا عصبيات جداً ، ثم عصبيات جداً ، وان الجن والشياطين لا (يخاوون) الا أمثال هؤلاء . وانه يحسن بالرجال أن يتركوا نساءهم وشأنهن يفعلن ما يحلو لهن لان العفريت متحكم ، والعفريت قوى لايغلب . وقد يقذف بالتي عليها الزار من النافذة ويدك عنقها . وبالطبع هذا يعز علينا جداً . ويجب ان نتجنبه مهما كان الثمن الذي ندفعه

والعصبية هي المذكر للزار — فالثانية تنصرف للاناث والاولى تنصرف للذكور ، فهذا الصبي الذي نحن بصدده عصبي جداً ولهذا فهو بزعم أن له عذرا في هذا

كنت أعلم هذا اذن عن هذا الصبي ، وشعرت انه في حاجة إلى درس يحفظه ولا ينساه ، والظاهر انه شعر بحروجة الموقف فاراد ان يحذرني فقال

— أرجو ان لاتغضبني لأني عصبي واظن ان اخي اطلعك على هذه الناحية من حياتي

— فقلت إذن اخرج في الحال

— فقال لايستطيع احد ان يخرجني لأني عضو هنا ولاني ادفع اشتراكا مثل باقي الأعضاء فلي الحق فيما لهم ، كيف تخرجني ؟ لا يمكن ذلك

ثم علا صوته كأنه يستدعي عفريته أو يستجلب زاره او يهوش حتى نسلم بما يريد

فدعوت الخادم وامرته ان يقذف به خارج ابواب المعهد ، بأسرع مايستطيع ، ففعل وعدنا للعب

ثم عاد الصبي بعد يومين او ثلاثة وهو لايتألم إلا لشيء واحـــد وهو انني استخدمت بربرياً قذراً لاخراجه عنوة من المعهد ، فافهمته ان البربري ليس حتماً قذراً أولا ، وانني قصدت ان يتعلم درسه مرة واحدة . ثانيا ، فقال

ـــ ويعني ماذا كان يجري لو صرحت لي بان ألعب ؟

ـــ وماذا كان يجري لو صدعت بالامر وخرجت من الملعب من غير أن تكابر

ـــ لكني طلبت أن العب فكان يجب أن يجاب طلبي ولا يرفض أمام كل هؤلاء الصبيان

ـــ وانا كنت قد رفضت فكان يجب أن لا تقاوم الامر امام هؤلاء الصبيان اذا كنت انت تستنكف أن ترجع عن خطأك امام الصبيان فكيف ارجع انا عن امر ما زلت موقنا انه صواب :

ـــ الحق اني اخطأت من الاول ولكن هل كان هذا يستدعي مثل هـــذه الاهانة تلحقني ؟

ـــ كان يستدعي اكثر من ذلك وما زلت اشعر انك كنت تستحق ما نالك

كان يتحادث معي والدموع تسيل من عينيه فمسحها وانصرف

قد يزعم البعض أن هذا ما كان يجب أن يعمل في مثل هذه الظروف لأن مثل هذه الروح الرديئة لا يجب أن تسود معهداً محترماً مثل قسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية لانها تستطيع أن تقضي على كل حسن وجميل فيه ، وتوشك أن تنشر الفوضى بين جدرانه . والفوضى والاخلاق لا يجتمعان ، واقل ما كان يقدر من النتائج لها ان باقي الصبيان يدرجون على هذا ويستقر في افهامهم أن العصية هي عصا الساحر التي تذيل الفرد جميع ما يتمنى . واظن ان الكثيرين يزعمون أن هذا هو الذي يكون اذا

ترك الحبل لهذا الصبي واذا اطلق له العنان لينال ما يريد بهذه الوسائل السخيفة

ولكن هنالك امراً كان يجب ان احتاط له وان اتدبره حتى استطيع أن سبق الحوادث واتقي مثل هذه الحالات وهذا هو الرأى العام أو روح الجماعة (Group Spirit) وهذا ما سوف نتكلم عنه فى فصل تال عندما نبحث الوسائل الايجابية للتربية الاخلاقية . وانما يكفى هنا أن اقول انه لو كانت فرقة كرة السلة منظمة ، ولو كانت تشترك فى وضع القوانين وتنفيذها ، ولو كان لها رأى فى كل هذا لما استطاع هذا الصبي ان يتصرف بهذه الطريقة ولكانت الجماعة أول من يعترض ويثور ويهم بانزال العقاب

فى هذه الحالة كان ينقلب وضع الاشياء ، فعوضاً عن انهم جميعاً يقفون متفرجين ينتظرون تطور الحوادث ويتكهنون عن نتيجة هذا النزاع ليروا أى الطرفين هو المنتصر ، نقول عوضاً عن هذا يكون المتفرج هو انا ، ويكون انى اقف هناك انتظر فعل الرأى العام فى تأديب احد الشواذ الفرديين العاصين واتدخل فى الوقت الملائم لانقذ الصبي ، ويكون الصبي فى هذه الحالة قد تعلم الدرس الذى يجب أن يتعلمه فلا يعود يلعب بالنار

اما والامور قد سارت فى هذا السبيل فلم يتعلم الصبي على ما اظن الا امرين اثنين وهما اولا انه ليس كفؤاً لمدير المعهد وان لقوته حدوداً لا يجب ان تتعداها والا اصطدم بقوة اكبر وانخزل ، ولا اظنه تعلم هذا الدرس بشكل عام يستطيع ان يطبقه فى جميع الحالات . وانما غاية ما علم ان مدير هذا المعهد بالذات يستطيع ان ينفذ فيه ما يراه ، وعلى هذا فلا يحسن به ان يجرب نفسه فى موقف آخر معه ، وهذا كما لا يخفى درس بسيط ضئيل الشأن لا يستحق كل هذا العناء

وتعلم ثانيا انه قهر على امره ، وان قاهره فرد بذاته ، ولا يمكن ان تصفو نفسه من ناحية هذا الانسان ، قد تأخذ الظواهر شكلا طبيعيا ولكن نفسه مازالت تحمل حزنا دفينا واثراً بعيد الغور ، وما يخسر من هذه الحالة الا المربى لأن سبيله الى نفسية الصبي لم تعد سهلة معبدة

الفصل الثاني

بحث نظري في الطاعة

لقد مرت بالمؤلف حالات كثيرة كان فيها العصيان ظاهراً صريحاً ؛ ولكن قبل أن يذكر بعضاً من هذه : وقبل ان يذكر بعض الحالات الاخرى التي كانت في ظاهرها عصياناً وفي باطنها شيئاً آخر بخلاف العصيان : والتي كثيرا ماتلتبس على المربي فيحار وتدفعه حيرته الى الغضب والانفعال ؛ قبل ان نذكر شيئا من هذا يحسن بنا ان نقول شيئا عن الطاعة نفسها : حتى تستقيم الامور في افهامنا ، وحتى لانضل في مسالك النفس المتشعبة يجمل اذن بنا أن نبحث الطاعة من الوجهة النظرية حتى نستطيع ان نرى مواقع الاقدام فلا نضل في الاسباب والدوافع

الحق أني أشعر ان الطاعة أمر يختلط على الافهام . وتدخل عليه عوامل كثيرة تزيده تعقيداً وتجعله ابعد من أن يكون مفهوما أو معقولا ؛ يختلط الامر في افهام الآباء والمربين اختلاطاً كبيرا . وتتشوس عوامله في نفوسهم فلا يعودون قادرين على ان يحللوا تلك العوامل تحليلا قريباً للمنطق والعقل . فالطاعة من الآداب والفضائل حيناً والصبي الذي لايطيع شرير وخاطىء وتجوز عليه أنواع العقوبات . هذا من ناحية . وأما من الناحية الاخرى فان الصبي المطواع الذي لايخالف أمراً يكون قليل الحيلة عاجزاً ضعيف الشخصية والنزوع

لقد درجت الناس على الاعتقاد بأن الصبي يجب ان يطيع الأب والأم والاستاذ ثم يطيع الاخوة الكبار في بعض الحالات والبالغين على العموم في بعض الحالات الاخرى . ولماذا يجب ان يطيع هؤلاء وأولئك ؟ هل خطر في بال الأب والام والاستاذ وأمثالهم ان يسألوا أنفسهم هذا السؤال ؟ لا أظن : ولماذا يكلفون

انفسهم مشقة السؤال ؟ ان الصبي موجود . والاب كذلك موجود . وما على الاول إلا ان يكون رهن اشارة الثاني من دون ان يكلف انسان نفسه مشقة السؤال والجواب . وهل ينتظر ان يكون الامر بخلاف ذلك ؟ هل يدعو انسان الى عصيان الاولاد ؟ هذه مصيبة . والمربي الذي يدعو الى ذلك مجنون . وما على الآباء وباقي المربين إلا أن يدمغوه ويرسلوه للشيطان

وأما ماعدا ذلك فالامر لايختلف فيه اثنان لأن من طبيعة الانسان ان يطاع ومن طبيعة الطفل ان يطيع . فرغنا من الموضوع . انتهينا . لم يعد فيه قول يقال

هذا هو محصل السياسة التي نسير عليها من غير تردد أو تبصر فلا يقف أحد منا ليتساءل هل هذا صواب أم خطاء وهل يتفق مع التربية الحقة للصبيان أم لايتفق . كل هذا لا يدخل في نظام تفكيرنا . والحق أننا لانفكر أصلا في هذا الموضوع . وكل مانفعله هو أن ندرج على العادة والعرف والتقليد . وليس لهذه جميعا رأي بخلاف هذا

أنا لا أدعو الى العصيان والتمرد . ولا أشجع الصبيان على هذا . فكثيراً ماعاونت الآباء على تقريب المسافات بينهم وبين أولادهم ، وكثيراً ماعاونت وجهات النظر على أن تتقابل وتسير في اتجاه واحد : ولكن كل ماأدعو اليه هو ان يرجع الآباء والاساتذة الى نفوسهم ويسألوها هل للصبي حق في ان يعصى ؟ ومتى يكون له هذا الحق ؟ واذا لم يكن له مثل هذا الحق فلماذا لايكون له ؟ وهل تعود اضرار العصيان على أخلاق الصبيان فقط ؟ أم نبغضه فقط لأنه متعب للآباء والاساتذة ؟ كل هذه الاسئلة وأمثالها يجب ان تبحث باخلاص وبصراحة بين الآباء والاساتذة وبين أنفسهم ، فاذا اكتشفوا أن الطاعة في كل ما يأمرون به لازمة من لوازم الاخلاق في الصبيان فليفعلوا وليحملوهم على الطاعة حملا . وليذهبوا في هذا السبيل الى أقصى ماتصل

ولكننا نرى أن الطاعة قد انسحبت الى أمور كثيرة لم يكن يحسن أن تنسحب عليها . أو عبارة أخرى قد اتسعت دائرتها الى ان صارت تشمل أمورا كان يحسن أن تكون خارجة عن دائرتها : فالاصل فيها كما نرى أنها ضرورة قضت بها الظروف فقط . فالطفل جاهل بأحوال البيئة التي يتعامل معها لذلك صار حتما لزاماً عليه ان يرجع الى أبيه وأستاذه ليأخذ رأيهما فيما يعرض له . ثم لانه قد يتعرض لأخطار نفسية وبدنية كثيرة وجب عليه ان يأتمر اذ يؤمر بشيء . فالاصل فيها اذن فائدة الصبي ليس غير . أي أنه لا يجب ان يكون للوالدين والاساتذة مصلحة في ذلك لأن هذا النظام لم يوجد لخيرهم هم

كل هذا واضح ظاهر . ولكن الأمر اختلط اختلاطاً كبيراً . فصارت مصلحة الوالدين والاساتذة مقدمة في الاعتبار على ما عداها . وصارت الطاعة واجبة على الصبيان لان ذلك مما يسهل الامور لهم . يقول رختر « لاقيمة اخلاقية للطاعة في نفسها وبغض النظر عن الدافع لها . وكل ماتستطيع الطاعة ان تفعله هو ان تسهل الامور للوالدين »

فاذا كان كل مانسعى اليه هو تيسير الامور للوالدين فقط فقد عرفنا الطريق لذلك . وماعلى هؤلاء إلا ان يقسروا اطفالهم على الطاعة وكفى . يستطيع الوالدون ان يرغموا الاطفال على ان يستمعوا لهم وينفذوا أوامرهم — وكان الله يحب المحسنين

ولكن الوالدين على الاطلاق ينكرون ذلك ولا يسلمون بأن الدافع للطاعة راحتهم هم . قد تستطيع ان تبين للأب ان تصرفه مع الصبي لايقصد منه إلا تسهيل الأمور للأب نفسه . وقد يقبل ذلك منك اذا ماأحكمت المنطق وضيقت عليه الخناق . ولكن عند ماياتي دور العمل فعلى المنطق العفاء . لقد أمر الأب ويحسن بالصبي ان يطيع

فالأمر كما نقول لانه عنـد مايامر الاب او الاستاذ طفله تكون قد تنبهت فيهما الشخصية . وتكون هذه الشخصية (Individuality) قد تحركت لاثبات وجودها الفعلي بأى شكل من الأشكال . تكون قد شعرت ان الامر هو عبارة عن تنازع بين شخصيتين . وان هذا التنازع أخـذ يدور حول السيادة بينهما . فالأب يأمر . وهـذه حالة من حالات النفس حينما تحاول ان تسود . ثم يعصى الابن . وهذه أيضاً حالة من حالات النفس حينما تحاول ان تستقل وتتحرر ، أو تحاول ان تثبت لشخصيتها وجوداً . ثم يبدأ النزاع بأمر من الأب وبعصيان من الابن ، ومن ثبت منهما وأوغل فى خطته فهو الناجح

عنـــد هذه النقطة تستيقظ العواطف . لأننا لانستطيع ان نرى نزاعا بين شخصيتين من دون ان تلازمه العاطفة الهوجاء . وعنـد ماتدخل الاهواء فى الموضوع لابد ان يغفل خير الصبي كل الاغفال . فالأب موتور أو يشعر أنه كذلك . والابن مظلوم أو يظن ذلك

أنا لاأزعم ان كل هذه الخطوات يأتيها الوالد أو الاستاذ عن قصد وروية . كلا لست أزعم ذلك ، لانى كنت استاذاً وما زلت كذلك من بعض الوجوه . واعرف بالاختبار أيضاً ان مايجول فى نفس المربى فى حالة كهذه ليس شيئاً سوى شعور وعاطفة ، وانه عند مايفعل أمراً يفعله عن شعور وعاطفة أيضاً بغض النظر عن خير الصبي

ولكى أحل هذا المشكل أخذت على نفسى عهداً ان لاأفعل شيئا للتو والساعة متى كان ذلك مستطاعا ، وهو مستطاع فى نظرى فى معظم الحالات فعند ما تعرض لى حالة من هذا القبيل اترك الامر عند حد معلوم ، وأعطى فرصة للصبى ولنفسى حتى تنصرف العاطفة والشعور ويعود العقل متملكا لزمام النفس ، ثم افعل بعد ذلك ماأنا فاعل ، وفى معظم الحالات تنتهى المسألة بأحسن الطرق ، فيرى الصبي

وجهة نظرى وأرى وجهة نظره ، ثم نتعاون فيما يعود على اخلاقه . ويكون ذلك بالممارسة والبحث من غير تعنت أو ثوران فى النفس . يقول صورز أحد أساتذة التربية بجامعة شيكاغو « اذا لم ير الطفل الحكمة فى بعض أنواع السلوك الذى يطلب اليه ان يفعله فعلى الاباء ان يوضحوا له ان الحكمة فى بعض الامور قد تغيب عنه . وانه يجب عليه ان يفعل مايطلبون ليس على سبيل الطاعة بل لانه يثق بمحبتهم له وانه فى حاجة الى نصائحهم وارشادهم . أو بعبارة أخرى يجب أن تسعى التربية الاجتماعية لان تنتزع السلوك من دائرة الطاعة لتضعه فى باب الاستماع لنصائح المجربين »

فانا لاأدعو الصبيان إلى العصيان ، ولا أدعو الاباء الى التساهل مع أولادهم فى العناد والتمرد ، لان مثل هـذا خطر على أخلاق الصبيان ، وانما كل ماأدعو اليه هو انه لايضع الاباء كل طلباتهم فى صيغة الامر والنهى لان مثل هذه الحالة تنتج أحد أمرين . أما أنها تستلب النزوع والارادة والاستقلال من الصبيان وتحرمهم من قوة الشخصية التى هى من مستلزمات القيادة والزعامة — أو أنها تجعلهم يتمردون على والديهم ويعصون ، فيتولد الاحتكاك والتنازع بين الفريقين ، وقد ينقلب كل هذا الى حقد وكراهية من الجانبين

فاذا أردت من ابنك ان يفعل شيئاً اطلبه منه بلطف ولا تنس ان تقول « من فضلك » ، فاذا رفض الطلب ، يجب ان لايكون هذا سبباً لثوران العاطفة فيك فتحمله على ماتريد بالقوة ، بل حاول ان تفهم لماذا لايريد ان يفعل هذا ، وباحثه فى الأمر كما تباحث صديقاً لك ، واشرح له وجهة نظرك وبين له لماذا تريد منه هذا الأمر . فللطفل الحق أيضاً فى ان يفهم لماذا هو مطالب بفعل هذا أو ذاك ، يجب ان توضح ذلك له بلغة سهلة بسيطة حتى يفهم ، ومتى فهم فقد يقتنع ويفعل مايراد أن يفعله

ليس ذلك من حق الصبيان فقط بل هو لصالح الاباء ايضا . فقد يجوز أن الطفل يعصي لأن له من الاسباب ما يبرر هذا العصيان . وقد تكون هذه الاسباب مقنعة عند ما يعرفها الوالدون والمربون . ليس هذا ببعيد ، فلماذا اذن لا يتأنى الاباء ويصبرون حتى يعلموا الدوافع الحقيقية التي تدفع الصبيان الى العصيان ؟ فان الصبر والاناة هما من خير الامور للكشف عن تلك الدوافع وليس يضر الوالدين أن يعلموا بهذه الاسباب حتى وان كانت تافهة ، لانهم متى علموها وقدروها قدرها الذى تستحقه تيسرت الامور وهانت عليهم فيستطيعون ان يعالجوا صبيانهم على نيرة وبصيرة

أما اذا هاج الاباء وثارت عواطفهم وتنبهت فيهم غرائز حب السيادة والانتصار فسوف لا يسهل عليهم أن يرجعوا عن خطتهم بعد ان يكونوا قد قطعوا فيها شوطا كبيرا لأن العاطفة تعميهم عن أن يروا للصبيان حقا أو شبه حق والنتيجة لذلك أن الصبيان يظلمون لغير داع وعلى غير طائل والظلم قبيح ومضر على أى حال

ولست ادعو الى شيء نظرى أو خيالى لأنى قد اختبرته بنفسى فى معاملتى للصبيان ، ووجدت ان التريث والاناة من خير الطرق فى تقويم اخلاقهم على اهون سبيل . ووجدت بالاختبار ايضا انهم يستجيبون للعقل والمنطق ويقدرون للامور ظروفها واحكامها فى معظم الحالات وهم فى الاغلب مستعدون للاحتكام للمنطق والعقل

ولا ارى لهذه الطريقة الا عيبين الاول ان صبرى يكاد يفرغ فى بعض الحالات ولكنى اعتبر هذه من اغلاطى وليس من اخطاء الصبيان فاروض نفسى على الاناة والصبر . واسعى جهدى لكيلا اجعل الصبيان يتحملون نتائج تقصيرى انا فان فرغ صبرى كالحال مع معظم المربين والآباء يجب على ان اتحمل انا وحدى نتائج

تقتضي والاغلب انى انجح فى هذا الامر واما الامر الثانى فهو ان مثل هذه الطريقة تأخذ كثيرا من وقت الانسان . وهذه وان كانت من الامور المهمة حقاً فى نظر بعض الآباء والمربين . الا انها ليس مهمة عندى . وذلك لأن لى من الوقت ما استطيع ان اصرفه فى مثل هذا العمل . اشغالى كثيرة حقاً . ولكنى لا اسمح لها مطلقا بان تتدخل فى امر تربية الصبيان لان هذا فى نظرى اهم ما لدى من الاعمال

وبعد فمسألة الوقت يمكن تدبيرها لانه اذا لم يكن للاب او المربى متسع من الوقت يبحث المسألة مع الصبيان يحسن به ان يتركها معلقة الى وقت آخر وهذا فى الواقع افضل . لانه فى هذه الحالة يتسع المجال للاب والابن فيدرسان الموضوع بقلبانه على وجوهه الكثيرة . حتى عندما يعودان اليه يكونان فى حالة نفسية تسمح لكليهما ان يقدرا وجهة نظر الآخر . وعلى التفاهم المتبادل يتوقف كثير من التربية الاخلاقية

بعد هذا لايتبقى إلا حالات العناد الصريح المقصود لذاته . وهذا فى آخر الامر ضرب من الفردية المرذولة (Individualism) التى ليس لها منشأ فى رأيى إلا من محبة النفس بشكل مزر للجماعة ومحقر لحقوق الآخرين : وظاهرة هذه الفردية أو الزراية بالجماعة هو العصيان والتمرد . ولهذه الحالة حكم آخر . وهو التشدد من الوالدين والمربين . وليكن الحزم مظهر هذا التشدد بشرط ان لايكون هنالك غلظة أو شدة أو ضرب . لكم . فكل ماندعو الآباء اليه هو أن لايرجعوا على أعقابهم فى مثل هذه الحالة . وليكن هذا الحزم مقرونا بالصبر والاناة أيضاً . فليس يجدى ان يثور الآباء على أطفالهم

التراجع فى رأينا مفسدة للصبيان . لأنه يعلمهم أن يوغلوا فى عنادهم متى عندوا وذلك لأن الصبى عندما يرى ان الوالد تراجع يشعر أن صبره قد فرغ وأنه قد عجز عن أن يصل الى غايته . فيوقر فى ذهنه ان النزاع هو فى الواقع بين نوعين من

الصبر. ومن استطاع منهما أن يستمر الى آخر الشوط فذلك الذى يربح . ولا يحجم الصبي عن أن يبارى أياً كان فى هذا المضمار . وأغلب الظن أنه سيربح الرهان

ثم هنالك حالة أخرى نرجو أن يلتفت الآباء لها لأننا نشعر أنهم لم يقدروها قدرها فى كثير من الحالات مع أنها من أهم العوامل فى تمرد الصبيان وعصيانهم وذلك ان الآباء لا ينفكون يكررون على مسمع من الصبيان وعلى غير مسمع منهم ان هؤلاء شديدو المراس عنيدون لا يمكن لانسان أن يصدهم عما يشرعون فيه

يقول الواحد منهم « ابنى عنيد — رأسه ناشفة — يستحيل عليه ان يرجع فى رأيه » هذه الجمل وأمثالها كثيرة الشيوع فى عائلاتنا بشكل يجعل الانسان منا يثور فى قرارت نفسه

وليس لهذا الضرب من العقائد والآراء إلا نتيجة واحدة . وهى أنها تشجع الصبيان على العصيان والتمرد . لا بل تذهب الى أكثر من ذلك . فانها تحضهم على أن يعصوا ويتمردوا وتحبب اليهم ذلك وتفتح أمامهم الأبواب اليه . ومعناها الذى ليس لها معنى سواه هو هذا « يابنى أنا اؤمن وأعتقد ايمانا واعتقاداً لاشك فيه أنك صلب العود وعنيد . وأعلم أيضاً أن لاحيلة لى فى ذلك ولا استطيع أن أثنيك عن أمر تريده . فانا عاجز وأنت قوى . أنا متردد وأنت ثابت . وأعلم أنك سوف تفوز على فى كل أمر تتشبث به . وأنا مستعد لأن اسلم لك مقدما فى هذا المضمار . فدونك وما تريد »

حقا لا يقول الآباء كل هذا . وانما يقولون شيئا فى معناه ويقولونه مختصراً مقتضبا ، ولكنه يكفى على كل حال لأن يفهم منه الصبيان كل ماهم فى حاجة لفهمه وهنا لك شىء آخر وهو أن بعض الآباء يتغفلون أبناءهم ، فاذا جلست الى احدهم وتناول الحديث ابنه ترى أموراً مضحكة ، يغمز لك الاب بعينه ويهز راسه لناحية ابنه ويقول لك « عنيد جدا ؛ رأسه ناشفة » ويمضغ الالفاظ مضغاً كأنه

بهذا الضرب من الكلام والاشارات اغلق الامر على افهام ولده ، اما اذا كانت لك دالة عليه وتستطع ان تذكره بان مثل هذا الحديث لايصح فى حضرة الاولاد على الاقل فانه يجيبك قائلا « لا ماهو ما يفهمش » وهذا ضرب من تغفل الصبيان والاحتقار والزراية بافهامهم وهو لا يجوز ولايخلو من الخطر .

بعد كل هذا يتعجب الآباء لعناد أبنائهم فمنهم من يقول انها الطبيعة قد قضت بذلك وليس لقضاء الطبيعة الا التسليم والطاعة ومنهم من يقول ان الطفل قد ورث ذلك عن أمه أو أبيه أو أحد أجداده الاقربين فقد كانوا رحمهم الله عنيدين لايرجعون فى أمر من أمورهم وهكذا يسدرون فى هذه التكنهات الى غير حد ولو دروا لعلموا أنهم هم السبب فى ذلك وليس أحد سواهم

هم السبب فى ذلك أولا لانهم أوحوا لنفوسهم بالعجز ومتى شعر الانسان بأنه عاجز فى ناحية من النواحى ووقر فى ذهنه هذا العجز ولم يحاول له علاجا أو دواء أصبح حقاً عاجزاً ودرج على هذا ووطن نفسه عليه ولا يستهين الآباء بالايحاء الذاتى (Auto - suggestion) فان له قوة كبيرة فى توجيه الميول والنفس ذاتها الى الوجهات التى يريدها الانسان . ولقد غالى بعضهم فى هذا كل المغالاة حتى قالوا ان الايحاء الذاتى يشفى من الامراض البدنية الكثيرة ومن أمثال هؤلاء كويه العالم الفرنسى . ولست أنوى بحث هذه النظرية الآن ولكن يكفى ان اقول ان رأى كويه لم يعد له قيمة فى الدوائر العلمية ، ولكن بقى شىء واحد من كل هذا وهو ان الآباء يصيرون عاجزين حقاً عندما يستقر فى أذهانهم خطأ انهم عاجزون ومتى وقر ذلك فى أذهانهم لايعودون قادرين على ان يسوسوا صبيانهم

وهم السبب فى ذلك ثانياً لانهم يطلعون اطفالهم على هذا العجز يفعلون ذلك وهم لايدرون فى معظم الحالات ولكنهم يفعلونه على أى حال وبعد ذلك ماذا بقى من سياسة الاطفال ؟ لقد فرغ من الامر وصار الاطفال أحراراً يفعلون

مايريدون من غير رقيب أو حسيب

ومحصل رأيي فى الطاعة هو هذا — أولا انها من أحط درجات الفضائل ، وتوشك أن تكون خارجة عن دائرتها وثانيا يجب ان تستبدل بالممارسة والتفاهم من الطرفين . وثالثا من حق الصبي ولخيره ان يفهم لماذا هو مطالب بأن يطيع أباه فى كل حالة على حدتها . فليس يجدى ان يلقى الاب على ابنه عظة طويلة فى ضرورة الطاعة المطلقة المجملة بل يحسن ان يفهم الصبي لماذا يجب ان يطيع فى كل حالة بذاتها . رابعاً يجب ان لا يوقر فى أذهان الآباء انهم عاجزون عن حمل صبيانهم على الطاعة . خامساً يجب ان لا يشعر هؤلاء بعجز آبائهم لان شعورهم بهذا العجز يجعلهم يوغلون فى التمرد والعصيان سادساً لايجب ان نطلب الى الصبي ان يكون مطواعا يفعل كل مايؤمر به لان هذا يحرمه من النزوع وقوة الشخصية وهو أيضاً يقتل فيه روح القيادة والزعامة وعلى هذا يجب على الآباء أن يقللوا من الاوامر والنواهى مااستطاعوا الى ذلك سبيلا

من المفروض المسلم به ان الاعتراض على أمر لايأتى الا من انسان قوى النفس جرى على التعبير عما فى نفسه وفى الدفاع عنه ، حقاقد يكون هذا الاعتراض من الامور الغير مرغوب فيها فى بعض الظروف وقد يتسبب أيضا عن نقص اخلاقى عند مايكون الاعتراض لمجرد الاعتراض أو حبا فى الشذوذ عن الجماعة كما بينا فى الفصل السابق . قد يكون هذا حقا ، ولكنه حق من الجهة الاخرى أن المقاومة لاتأتى الا ممن كان قوى الشخصية حراً فى شعوره وفى التعبير عن هذا الشعور . هذا الصنف من الناس يملكون العوامل النفسية التى تشجعهم على البروز فى مجال الصراحة وفى مجال التمسك بالحقوق العامة والخاصة التى قد يشعرون ان خطأ وان صوابا انها قد مست فى ناحية من نواحيها ، هذا الصنف من الناس أحب اليه أن يفنى من ان يعيش مستعبدا فى الارادة والشعور والنزوع

والنفوس القوية هذه في حاجة الى التعهد والرعاية وليست في حاجة الى الضغط والكبح والاذلال . ومظهر قوة النفس هو الاعتراض بصراحة على ما لا يروق ، وأما مظهر الشخصيات الضعيفة فهو الطاعة العمياء التي ليس لها ارادة مستقلة

تدور هذه النقطة حول مذهبين متباينين في التربية . وهما المذهب القديم والمذهب الحديث . وليس المقصود من هذه التسمية تفضيل أحدهما على الآخر ، ولو استطعنا أن نسميهما بخلاف ذلك لفعلنا من غير تردد . لان الظرف الذي نعيش فيه والحياة الفكرية التي نحياها في هذا العصر قد أكسبت « الحديث » مزية الفضل والايثار على « القديم » فصار يكفي في مثل حالتنا هذه ان نسمي المذهب قديماً فينكر الناس له ، او أن هذا جديد حديث فيقبلون عليه اقبالا شديداً ، ولكن شيئاً من هذا لانقصد بهذه التسمية التي قدمناها ، وكل مانعنيه هو ان أحد المذهبين تقدم الآخر في الترتيب الزمني فصار أحدهما قديما والآخر حديثا ، وان كنا في حالتنا نفضل المذهب الحديث على القديم فليس ذلك ناتجاً عن شيء سوى متانة الاسس التي بني عليها كما سنبين في الصفحات التالية

يصعب جدا في مجال كهذا ان نستقصي المذهبين الى اصولهما التي خرجا منها أو إلى نتائجهما المحتمة التي سوف يقودانا اليها . يصعب ذلك لان بحثاً كهذا يستغرق كتابا قائماً بنفسه . وهذا بالذات ما لا ننوي أن نفعله في الوقت الحاضر لأسباب كثيرة اهمها ان الغرض من كتابنا الحالي يتنافى مع هذا الامر

وثمة نقطة اخرى يحسن التنبيه اليها قبل أن نذكر شيئاً عن هذين المذهبين ، وهي هذه : من أي وجهة اقتربت من هذا الموضوع يتحتم أن تبدأ فيه من نقطة معينة وقد تكون هذه النقطة نتيجة يقود اليها المذهب أو غاية يسعى اليها . ولما كان يتعذر علينا كما قلنا ان نستقصيه بالتفصيل فسوف يظهر للبعض أننا متعسفون في البدء بهذه النقطة ، فلماذا لم ننته اليها بدلا من ان نبدأ بها . أو كيف جاز لنا أن

نزعم ان هذا أو ذاك هو أساس هذه النظرية وليس الغرض الذى تقودنا اليه ؟ وهكذا من هذه الاسئلة التى نشعر فى أعماق نفوسنا أنها معقولة من وجوه كثيرة ، ولكننا كما قلنا نجد أنفسنا مضطرين لان نبدأ بشىء ما على أى حال . أما لماذا أخذنا بهذا ولم نأخذ بذاك — أو ماذا حدا بنا لان نبدأ به فلسنا ننوى ان نشرحه فى هذا المجال

يظهر ان السبب الذى حدا بالمدرسه القديمة لان تذهب هذا المذهب هو الزعم الخطأ بأن طبيعة الانسان شريرة من الاصل . لقد ولد الانسان بالخطية والخطية جزء لايتجزأ من طبيعته وكيانه ، فالشر ليس أمراً طارئاً على بنى الانسان لانه كما هو من عهد الخليقة الى الآن وسيظل كما هو الى ان يرث الله الارض ومن عليها ، لم يطرأ على الانسان الا ما كان من المظاهر الخارجية كاللباس والمدنية بتوابعها من سيارات وقطارات وطيارات ونظم اجتماعية ، وكل هذة مظاهر خارجية لاتقدم ولا تؤخر فى الموضوع . وأما الانسان ذاته فى جوهره وفى تكوينه وفى طبيعته وميوله ونزوعه فهو هو بنفسه من يوم ان خلق وسيظل كذلك الى الابد

لانستطيع اذن ان نغير طبيعة الانسان من الميل إلى الشر ميلا متأصلا فى تكوينه الى الأخذ بأسباب الخير أخذاً منشأه طبيعته أيضاً . لانستطيع تغيير الطبيعة أصلا . ومن العبث محاولة هذا الأمر ، لابل من الغباوة ان نظن بأنه ممكن بأى وجه من الوجوه . فالسارق مثلا سارق بطبيعته والقاتل يقتل لأن تلك الطبيعة عينها تدفعه إلى هذا الفعل . وهكذا الحال مع جميع الشرور التى نجدها فى المجتمع ، فقد توارثناها جميعا كما توارثنا تلافيف مخنا سواء بسواء ، والى أن نستطيع تغيير تلافيف المخ وقلب المعدة والامعاء الى غير المعدة والامعاء لانستطيع ان نغير من ميول الانسان الشريرة ، لقد حق علينا قضاء الله وسوف يكون مستقرنا الجحيم وليس لنا منه مهرب

اذن ماذا يجب ان نفعل ؟ هل نظل مكتوفى الأيدى مغلولى السواعد لنشهد الانسانية وهى سائرة الى غايتها القاتمة المظلمة ؟ ماالخلاص من كل ذلك ؟ وأين منه المفر ؟ يقول أصحاب هذه النظرية يوجد مفر من ذلك والسبيل اليه الحديد والنار — أو العصا تعمل فى ظهور الصبيان . فما على الانسانية الا ان تحطم الصبيان وتذل نفوسهم وتأخذهم أخذ جبار عزيز . فاذا سرق الطفل الهب ظهره وأشوه شيأ . حذار من التهاون أو الشفقة ، لاتبق على طفلك ولا تذر أياك وأن تأخذك به الرأفة . اقص هذه العواطف عنك ، واعمل يدك ورجلك وعصاك حتى تنقذ الصبى مما هو صائر اليه بحكم طبيعته الشريرة الفاسدة

اعمل جهدك لان تنقذه من نار جهنم التى هو صائر اليها بحكم طبيعته الدنسة النجسة ، والعصيان هو أحد مظاهر تلك الطبيعة القذرة . لاتفكر . ولا تثرو فى الأمر . لا بل أفعل وأفعل سريعاً وفى حزم وقوة حالما تتبين ان للصبى ارادة من أى نوع . فارادة الصبى بدعة خطرة يجب القضاء عليها قضاء حازما وسريعاً ، لاتباحث الصبى فى أمر يتعلق بارادتك أو ارادته . لاتحاول اقناعه فى مثل هذا الأمر . فان مثل هذا العمل يقوده حتما الى الهلاك المحتوم . يقول جون ويسلى « حطم ارادة طفلك حتى لايهلك . حطم ارادته حالما يستطيع ان يلثغ بالكلام أو قبل ان يستطيع ذلك أصلا . يجب ان تكره الطفل على ان يفعل كما يؤمر حتى ولو اضطررت لان تلهب ظهره بالسياط عشرة مرات متتاليات . حطم ارادته حتى تستطيع روحه ان تدخل الخلود »

ولا يقتصر الامر على انكار ارادة الاطفال والتنكر لها . بل يتعدى الى الرغبات والميول . وهذا هو الاثم الذى ليس وراءه اثم . وذلك لسبب واضح وهو ان الطبيعة الآثمة لاتميل ولا ترغب الا فى الاثم والشر . والحل لذلك أيضا بسيط وهو التحكم فى تلك الطبيعة وليس تغييرها . كبل تلك الطبيعة وضع اللجم

فى فمها وأقبض على العنان بيدين قويتين ثم قدها الى الخير وانفها راغم. حرام ان يرغب الصبي فى شيء أو يميل الى شيء ، اعترضه فى كل رغباته وميوله وأفسد عليـــه الأمر وقف عقبة فى كل سبيل له حتى لاتتحقق ميوله أو رغباته ، هذا اذا كنت لاترغب فى ان يذهب ابنك الى الشيطان . يقول الاسقف ويلز فى سنة ١٨٠٢ ، حاول بأسرع مايمكن لان تقمع شهوات أطفالك ورغباتهم ، تحكم فيهم وارغمهم على ان يخضعوا ارادتهم لارادتك . . . . . فمعظم خطايانا ومتاعبنا التى نواجهها فى حياتنا هذه مرجعها الى عدم قمع رغباتنا فى عهد الطفولة »

ذلك هو لب المذهب القديم فى التربية . وهو مؤسس كما قلنا سابقاً على الزعم بأن الطبيعة شريرة فاسدة لايمكن اصلاحها ، وكل مايستطيع أن يفعله المربون معها هو أن يتحكموا فيها كما يتحكم الفارس فى فرسه ويأخذ بزمامها ويقودها الى المزود . وعلى هذا القياس يجب أن نأخذ بزمام الاطفال والرجال ونقودهم صاغرين الى الفضيلة والى الجنة والى الخلود

وأما نظرية التربية الحديثة فتختلف عن هذه فى كل النقط الاساسية ، فليست الطبيعة فى نظرها فاسدة ولكنها ليست صالحة ايضاً . وكل مانستطيع أن نقوله عنها انها الطبيعة ليس غير ، فهى المادة الخام التى نصطنع منها الرجال بأى شكل من الاشكال ثم تتساءل هذه النظرية قائلة . « من ادرانا أن الطبيعة صالحة أو طالحة ؟ ليس مايحملنا على الأخذ بأحد هذين الفرضين الاجهلنا بعوامل البيئة أولا وبمفعولها ثانياً »

نحن لا نعرف فى الواقع عوامل البيئة ولا نستطيع أن نحددها أو نحصرها . فليست هى ما يحيط بالطفل أو بالانسان فقط ، بل هى ايضاً تلبيته لما يحيط به أو ستجابته لمؤثراتها . فالنار مثلا جزء من بيئة الطفل ولكن لا اثر لها فيه الا عندما تنتزعه أمه بغتة وهو يقترب منها فليست النار فى هـذه الحالة عاملا من عوامل البيئة ما دامت منفصلة عن احساسه . وهكذا الحال مع كثير من عوامل البيئة

والوسط . ومتى ثبت هذا فقد عجزنا فى الواقع عن التفريق بين عوامل البيئة وعوامل الطبيعة

فعندما نجد نقصاً فى اخلاق الطفل من الخطأ أن ننسبه الى الطبيعة بشكل قاطع لانه علاوة على أن هذا الزعم هو رجم بالغيب لا تدعمه الحقائق فانه يغل ايدى الوالدين والمربين عن أن يساعدوا اطفالهم بوجه من الوجوه . وفى الواقع نحن لانستطيع أن نفعل شيئاً مطلقاً ما لم نسلم بأن للبيئة الاثر الفعال فى تكوين الناس . وبغير هذا فنحن عاجزون . لأنه من العبث أن نفترض انه فى استطاعة المربين أو الوالدين أن يغيروا طبائع الاطفال . ولكنه من المعقول أن نزعم انهم يستطيعون أن يتحكموا فى عوامل البيئة الى درجة محدودة

فالتربية الحديثة تغفل الطبيعة من الحساب . تغفلها من وجهة واحدة فقط وهى انها تفترض أن الطبيعة غير شريرة وغير فاسدة فى الاصل . ومتى سلمنا بذلك فقد وجب علينا أن نعالج ما يحيط بالطفل حتى تستقيم اموره وتتفتح طبيعته فيصير الى ما هو صائر اليه ، ومتى تساوت جميع العوامل الاخرى فالانسان صائر الى الخير والى الكمال والتمام — أو على الاقل ليس من المفروض حتما أن طبيعته تدفعه الى الهلاك

وعلى هذا فالنظرية الحديثة فى التربية تتعارض مع النظرية القديمة فى الصميم فحيث تدعو الثانية الى الشدة والصرامة . والى الارغام والقهر . تعارض الاولى فى ذلك معارضة شديدة وتزعم أن القهر ليس مما يساعد على تقويم اخلاق الاطفال لابل تذهب الى أكثر من ذلك . فهى تزعم أن الشدة والصرامة محققة الضرر من وجوه كثيرة

فالشدة أو القهر تؤلب عواطف الصبى وميوله ومشاعره ضد ما نريد أن نعلمه اياه مهما كان نوعه ، فاذا ما اضطر صبى لأن يسلك نوعاً معيناً من السلوك — واذا

ما ارغمه المربون على فعل ذلك فلابد وأن يأتى اليوم الذى يكتشف فيه المربى أن جهوده كانت عبثاً لا طائل تحته . حقاً لقد فعل الصبي ما يراد منه أن يفعله ولكن نفسيته لم تهضم هذا النوع من السلوك ولم تقبله على أنه فى دائرة رغباتها وميولها وعند أول فرصة تسنح لها سوف تركز هذا الضرب من السلوك بالقدم وتنفض يديها منه ، يقول دولى « لا يهم ما تعلم الطفل مادام لا يحبه ولا يرغب فيه »

ومن مستلزمات القهر التى لا يوجد من دونها فى أى ظرف من الظروف انه يخلق الرياء فى نفوس المقهورين . فهؤلاء يتظاهرون بالرضى والقبول . وترى الى وجوههم فلا تكاد تتبين فيها الا كل علائم الرضا والاغتباط ، ولكن الحقيقة بخلاف ذلك على خط مستقيم ، لأن النفس فى قرارتها ثائرة غاضبة وسوف تثور ثورتها العلنية فى أول فرصة تتاح لها ، وأما اذا لم تثر ولم تقاوم فهذا دليل مادى لا يدحض على انها فقدت حيويتها من طول الضغط عليها ومن توالى الاضطهاد والقهر الذى لازمها الى أن ارداها عاجزة لاحيلة لها ولا قوة . يقول سبنسر فى هذا الصدد « أن اقصى ما تستطيعه الشدة هو أن تخلق مرائين ومداورين ، ولن يستطيع القهر أن يوجد الراضين القانعين »

وليس ذلك فقط ولكن الشدة تذهب بكثير من النزوع او الارادة ومتى انتفى استقلال الارادة فقد ذهب الاساس الذى تقوم عليه الفضائل دينية كانت أم اخلاقية ، لأنه من المسلم به عقلا ان الفضيلة ليست كذلك إلا لأن للانسان مطلق الحرية والارادة لأن يتقبلها ويسير بموجبها ، وهذا مايذهب اليه كانت (Kant) الفيلسوف الالمانى كما بينا فى كتابنا السابق « التربية والاخلاق » وذلك لأنه يزعم ان الارادة هى الاساس الوحيد للفضيلة وهو يؤيد ماذهب اليه فى هذا المجال من لزوم الارادة الحرة للفضائل والآداب عامة

وأما القهر والضغط والارغام فهذه كلها تستلب الارادة من الانسان وتتركه

عاطلا منها ، وتجعله يسلم قياد نفسه الى الغير ليفعل بها كيف يشاء . وانسان هذه حاله لايجب ان يكون مسئولا عما يفعل أو يفكر أو يؤمن ، أى أنه لايكون مسئولا عن فضائله او رذائله ، بل المسئول عن كل هذه هو المراجع والسلطات الدينية او الاجتماعية التى ترسم له خطط السلوك والتصرف والايمان ، ففى باب الدين مثلا لو قررت جماعة من الجماعات ان تلهب ظهر كل من لايؤمن بوجود الله وملائكة وشياطين وجنة وجحيم فقدلايتبقى انسان واحد يتشكك فى هذه الامور ولـكن ماقيمة هذا الايمان فى نظر الفضيلة وفى نظر الله الذى يرى مافى النفوس وما تنطوى عليه الضمائر ؟ هل يتقبل الله مثل هذا الايمان ؟

وهـكذا الحال مع جميع الفضائل التى يقهر الانسان على أن يتظاهر بقبولها خوفا من عقاب أو تجنباً لايلام ، وأغلب الظن ان الناس فى عهدالبداوة والهمجية كانوا أكثر منا استمساكا بما كانوا يظنونه من الفضائل ومن الدين ، وذلك لسبب واضح وهو أن ارادة الانسان فى ذلك العهد لم تـكن تجد الحرية الكافية لتختـار لنفسها مايحلو ، وعلى هذا فقد كانت درجات الفضائل منحطة ولا شك ، وكان الدين خرافات أو مايشبه الخرافات وكانت السلطات الخارجية هى التى تتحكم فى ضمائر الناس وفى ظواهرهم . وكان ما تقول به السلطة — مهما كان مذهبها ونوعها هو الحق والصواب ، وماترفضه هو الباطل الذى يجب أن يرفض . يقول هكسلى « من المبادىء الاخلاقية التى يستمسك بها الهمج وانصاف الهمج أن السلطة هى آمن الاساسات التى يرتكز عليها الايمان والفضيلة . فالفضل لمن يكون مستعداً لأن يتقبل ويؤمن من غير بحث ، وأما الميل الى التشكك فهو رذيلة ، والتنكر للسلطة خطيئة . لانه عندما تقدم بعض المراجع مذهباً من المذاهب . وعندماتحمل الفرد على الايمان به بطل عمل العقل »

هذه هى بعض الاعتراضات على النظرية القديمة فى التربية : وهى كافية —

بغض النظر عن الوجوه الايجابية للموضوع — لأن تجعلنا نتجنب هذه النظرية للاضرار المحققة التى تعود منها على حياة الصبيان لانها علاوة على انها تستلب الارادة من الفرد وتجعله قليل النزوع عاجز الحيلة كليل الفكر — فهى أيضاً وحشية لا يصح معالجة الصبيان بوسائلها

ويحسن بنا فى هذا المجال ان نعود قليلا الى ما سبق ان ذكرناه فى مفتتح هذا الفصل لنرى اولا وقبل كل شىء الى الغرض الذى نسعى اليه فى معالجتنا للصبيان . فاذا كان هذا الغرض اراحة الاباء والمربين من الصبيان ومن مهامهم ومسائلهم فبالاولى يجب على الاباء والمربين ان ياخذوهم بالشدة المتناهية ويعاملوهم كما نعامل الافاعى والضوارى فليلجأ الآباء الى القهر والارغام . وبذا يريحون انفسهم من عصيان الصبيان ومن تمردهم ومخالفاتهم للاوامر

ولكن اذا كان الغرض من التربية أمرا بخلاف هذا كأن يكون مثلا الاخذ بيد الصبيان ليصيروا رجالا نافعين اقوياء فى العزيمة احرارا فى النزوع وفى الفكر — اذا كان هذا هو الغرض من التربية — فالمذهب القديم ابعد المذاهب عن ان يصلح لمثل هذا الغرض . ونحن نفترض بالطبع ان هذا هو الغرض بذاته وعلى هذا فالمذهب الحديث اولى بالاتباع

وعلى اى حال يجب ان لا يعزب عن بالنا ان الفضيلة أمر ايجابى . بمعنى أنها ليست الامتناع عن بعض الامور التى تعتبر من الرذائل . بل هى فى الواقع أفعال ايجابية فاضلة ، فليس يحسن أن يوجه المربون كل جهودهم الى منع الناشئة عن أتيان مايشين ، بل هى أخذهم بالمران والاختبار ليفعلوا مايحسن فعله ، فليس من يمتنع عن السرقة مثلا فاضلا ، بل الفاضل هو ذلك الذى يرد مايجده لاربابه وليس من يمتنع عن تناول المخدرات فى مستوى من يقاومها . وهكذا الى آخر هذه الامور الظاهرة

فلا يحسن اذن ان نوجه جهودنا الى منع الرذيلة من الصبيان بل الى غرس الفضائل الايجابية فيهم . وذلك لسبب بسيط وهو ان المنع يستلزم الالم ولكن الفعل من مستلزماته اللذة ومعنى ذلك بعبارة أخرى ان العمل — العمل على الاطلاق أو الحركة والسعى والنشاط — هو ماينتج اللذة للكائن . فانت لاتلتذ ولا تسر الا متى عملت شيئاً أو استجبت لمؤثرات البيئة بوجه من الوجوه . عند هذا تشعر بلذة . وليس معنى ذلك ان أى عمل يستتبعه اللذة حتما . كلا ليس هذا ماارمى اليه . وانما نقصد ان نقول ان اللذة هى نتيجة لنشاط الكائن الحى بشكل من الاشكال . فان اردت ان تجعل الصبى يلتذ الفضيلة فدعه يفعلها ويعملها بطريقة ايجابية . ولا تدعه يمتنع عن الرذيلة فحسب ، والخير للطفل أن يتبع الفضيلة لانها تنتج له لذة من ان يمتنع عن الرذيلة لانها تنتج له ألما . ولتوضيح ذلك نضرب مثلا : عندنا طفلان . أحدهما يتجنب الكذب لان الكذب يعود عليه بالآلام . والآخر يتجنبه لان الصدق ينتج له لذة . أو يقول الصدق اللذة التى تعود عليه من قول الصدق . فقوانين علم النفس تؤكد لنا ان الثانى منهما يكون الصق بالفضيلة وأكثر استمساكا بها وحبا لها من الاول . يقول الاستاذ ثورندايك « ان تثبيت التلبيات الحسنة بربطها باللذة التى تنجم عنها لخير من الامتناع عن عمل التلبيات الرديئة لانها تنتج الما . فليس من ينكر ان الحيوان قد يتعلم عن طريق الالم . ولكنه من الممكن أيضا ان الحيوان الذى نؤلمه ليتجنب أمراً مكروها — من الممكن ان مثل هذا الحيوان يتجنب كل أنواع السلوك المكروه والمحبوب جميعا . وكلما زدناه آلاما كان أقرب لان لايفعل شيئا مطلقا من هذه أو من تلك » ومعنى ذلك ان الحيوان أو الانسان الذى نأخذه بالشدة والعنف عند مايخطىء قد يأتى عليه وقت فيه يلتبس عليه الامر فلا يعود مستطيعا أن يعمل شيئا مطلقا وعلى أى حال فان أخذ الكائن بالهوادة واللين أعود عليـــه كثيراً من

أخذه بالشدة والقهر ، لانه فى الحالة الاولى يستطيع ان يرتأى ويفكر ويريد ، ويكون فى ارادته وفى فكره بمأمن من الارهاب والازعاج . وفى هذا قدر كاف من الحرية يسمح له بالنماء والاضطراد

والحرية التى نذكرها هنا ليست مرتكزة على العواطف أو الشعور . لسنا ندعو الى الحرية لان عواطفنا قد ثارت لها ، او لاننا اندفعنا اليها على مثال المتطرفين المتهورين الشغوفين بالحرية يلوكون لفظها ولكنهم لايكادون يرون أبعد من أنوفهم فى هذا المجال . كلا لسنا ندعو الى الحرية لان « الموضة » أن يدعو الناس اليها . ولكننا نذكر الحرية لانها السبيل الوحيد لنماء الشخصيات وتقدمها ، ولانها السبيل الوحيد لاستكمال ملكات الطفل وتفتحها حتى يصير من طراز الرجال الذين تحتاج اليهم البيئة المصرية وغير البيئة المصرية ، فمن المحال ان ينتج الضغط هذا الضرب من الافراد الاحرار . يقول روسل فى الاتلانتيك ما نثلى (Atlantic Monthly) « عوضا عن ان نرمى فى تعليمنا الى الطاعة والخضوع يجب ان نرمى الى المحافظة على استقلال الشخصية والنزوع ، ونستعيض عن الشدة والقهر بالقصد والعدل . . . . . فقد صارت التربية الآن تعالج على أنها وسيلة للتسلط على التلاميذ وليست لمعاونتهم على النمو والاضطراد »

وثمة أيضا التعاون ، وهو يقوم على تضامن الناس مع بعضهم وقيامهم بعمل مشترك . وهذا لايتسنى الا لجماعة مكونة من أفراد أقوياء أحرار مستقلين فى ارادتهم وفى أفكارهم . وهذا بالطبع لايعنى ان كل الناس متساوون فى المشروعات التعاونية ، لأن لكل منهم بطبيعة الأشياء ملكات يبزون فيها الآخرين ، وهؤلاء بالطبع أقدر من غيرهم فى بعض الميادين ، ويجب ان تسلم لهم الجماعة بالكفاية والتبريز فى تلك الميادين ، ومع كل ذلك فان من مبادىء التعاون الاساسية حرية الرأى والفكر والشعور لجميع الافراد على السواء . والا انقلب

التعاون الى بيروقراطية . وهى الحفرة التى كثيراً ماتتردى فيها الروح التعاونية

ومن خصائص التعاون التى تلازمه فى كل الادوار شعور الافراد بالمسئوليات الملقاة على عواتقهم ومحاولتهم الاضطلاع بتلك المسئوليات من غير تردد او خور فى العزيمة ، والاضطلاع بالمسئوليات هو فى الواقع قبول للنتائج المترتبة على النشاط المشترك فى الجماعة ، وبالطبع يلزم لكل هذه الشرائط أناس أقوياء النفوس جريئون كبار الشخصيات ، وهؤلاء بالطبع أصلح للتعاون من الضعاف المترددين . يقول برايس « ان الشعب الجرىء الذى تتميز اخـــلاقه بالجراءة والاعتماد على النفس أصلح للقيام على المعاهد والمنشآت الحرة من شعب اعتاد الخضوع والخنوع المستكين والطاعة العمياء »

يذهب الاجتماعيون والسياسيون أيضاً الى أن هذا الزمن هو عصر الديموقراطيات وحكم الشعب ، وسواء أبقى هكذا الى أمد طويل أم قصير فالواقع أنه كذلك ، فمن الصين الى أمريكا الجنوبيـــة ومن روسيا الى جنوب افريقا تجيش صدور الناس بالأمل فى الديموقراطية وفى حكم الشعوب نفسها بنفسها ، ومن أخص خواص هذا النوع من الحكم استقلال الشخصيات والافراد وتعاونهم المستنير للاغراض العامة التى تسعى اليها الشعوب والجماعات ، لانه من المفروض المسلم به فى الحكم الديموقراطى أن الافراد أحرار فى أرائهم وفيما يظنون أنه الخير لهم وللجماعات التى ينتمون اليها ، وبعبارة أخرى أنه مبنى فى الاصل على الثقة فى الناس عامة وفى الطبيعة البشرية على الاخص

لايستتبع حتما أن يكون مايظنه الافراد والجماعات خيراً حقاً ، فالعصمة ليست من مستلزمات الديموقراطية بأى وجه من الوجوه ، فقد يخطىء الافراد ، وقد تخطىء الجماعات ، لابل من حق الافراد والجماعات أن يخطئوا ، ومن حقهم أيضاً أن يتحملوا نتائج أخطائهم ، ولكن من المبادى الاساسية ان الناس حربون بأن

تكون لهم اراء ونظريات فى نوع الحكم الذى له يخضعون وفى المشاريع التى بها يضطلعون . ثم أنهم حريون أيضاً بأن يعبروا عن هذه الآراء ويدافعوا عنها ويحاولوا حمل الآخرين على اعتناقها وقبولها

ولسنا بالطبع فى مقام الدفاع عن وجهة معينة فى الحكم وفى طريقته . وانما نقول فى هذا المجال أن الاغلبية العظمى من المفكرين والعلماء الاجتماعيين يدعون الى الحكم الديموقراطى . فاذا كان هذا هو الحال حقاً . واذا كان الغرض الاساسى من التربية هو اعداد النشء لحكم شعبى بأى وجه من الوجوه فقد صار حتما لزاماً علينا أن لانلجأ للقهر فى تربية الصبيان لأن أخذهم باللين وبالممارسة والسماح لهم بالاعتراض فى بعض الاحوال — كل هذه أدعى لغرس الروح الديموقراطية . ففى مثل هذه الحالة يشعر الفرد أنه حر لأن يفعل مايظن أنه الحق . وعليه أيضاً ان يتحمل نتيجة عمله . يقول الاستاذ دبوى فى هذا الامر « ان الحياة فى عصرنا هذا معناها الديموقراطية . والديمقراطية معناها تحرير العقول لتنتج آثارها المستقلة . أو بمعنى آخر اطلاق الحرية للناس فى الفكر والقول . . . . لأن اخضاع العقل للعوامل الخارجية المستقلة عن الشخصية معناه انكار لمبادىء الديمقراطية ، وهذه تقوم فى الاصل على استقلال الشخصيات وعلى مكانتها من الفضائل »

لقد ذهب العرف وذهبت العادة الى ان الصبيان الذين لايطيعون هم فى الواقع غير مؤدبين ، فكأن الأدب اصبح مرادفا للمذلة والخضوع وتجرد الفرد من الحرية والاستقلال ، ولا يذهب الناس هذا المذهب مع الكبار البالغين . لأنه من الحمق ان يظن انسان أن الادب هو فى خضوع الناس لرأيه . هذا مع العلم أن بعضهم مايزال يتخيل ان الاختلاف فى الراى حتى عند البالغين أمر شائن للشخصية والاخلاق ، أو على الاقل داعية للكراهية والبغضاء بين الناس

ولكن الامر مع الصبيان يختلف عنه مع البالغين على أى حال ، فالناس مستعدون

فى معظم الحالات لأن يرموا الصبيان الذين يخالفون مربيهم أو والديهم بالتجرد من فضيلة الادب والحياء . وذلك راجع بالطبع الى الزعم الخطأ ان الطاعة من الفضائل . ونقصد بذلك الطاعة فى جوهرها وفى اصلها بغض النظر عن الاغراض التى ترمى اليها وبغض النظر ايضاً عما يطلب اليهم ان يفعلوه . فما دام الذى يطلب منهم ان يفعلوه هو فى حدود العادة والعرف فليس لهم ان يخالفوا او يعترضوا

ونحن بالطبع نخالف العرف والعادة فيما يذهبان اليه فى هذا الصدد . فالادب فى نظرنا هو أن يأتى الفرد الفعل عن قصد وروية وأن يكون مستعداً لأن يتحمل نتيجة اعماله بشرف ورزانة . وما دام الفرد يقصد ما يفعل ويفعله بعد أن يتغلب الامر على وجوهه الكثيرة . ثم بعد ذلك يقدر له نتائجه المترتبة عليه ، ومادام يتقبل تلك النتائج أمام ضميره وأمام الناس فهذا الانسان مؤدب . وبعبارة أخرى أن الأدب هو فى الواقع نوع من الاستقلال فى الاخلاق وفى الفضائل ، فهو رياضة النفس على أن تفعل ما تظنه واجبها من غير أن تلتفت بالا الى المتاعب التى تحيق بها من جراء تلك الافعال ، فالانسان مؤدب عندما يختلف مع من هم أكبر منه واعظم شأناً ، وهو مؤدب عندما يعصاهم فى لطف وفى دعة وتواضع وهو مؤدب — بغض النظر عن سنه — اذا ما أراد أن يفهم لماذا هو مطالب بالطاعة . وهو مؤدب ايضاً عندما يظن ويشعر انه غير ملزم بالطاعة فى بعض الاحوال ، أو عندما يعبر عن هذا الرأى وذياك الشعور . يقول ديوى « أن من نشأ على أن يمحص افعاله ويأتيها عن قصد وعمد فهو مؤدب (disciplined) اضف الى هذا الخلق مقدرة الفرد على أن يحتمل فى سبيل العمل الذى اضطلع به عن عقل وروية كل أنواع التشويش والاضطراب والصعوبات التى تعترض سبيله . وهذا هو محصل التأديب « essence of discipline »

ومتى اعترف الوالدون والمربون بهذا الحق للصبيان — حق الاعتراض وحق

المطالبة بتوضيح الاسباب والدوافع — فقدوطنوا نفوسهم حقاً على خدمة صبيانهم وانقاذ استقلالهم وحرياتهم وشخصياتهم بجملتها من ضرر العسف والقهر والارغام انهم ان فعلوا هذا يسلمون معنا بأن الطاعة ليست امراً مرغوباً فيه لذاته ، وليست غاية يجب السعي اليها . ولكنها وسيلة لحماية الصبي من البيئة ومما يحيط به من العوامل المضرة بنفسيته وبكيانه المادى والادبى على السواء .

بعد هذا نرجع الى الامور العملية ، أو بعبارة أخرى لنطبق ماقلناه على بعض الحالات الخاصة التى عرضت للمؤلف لنرى هل حقاً يمكن تطبيق هذه النظريات على الواقع ؟ وهل تنفع حقاً أم هى مجرد الفاظ وخيالات نظريين لايدرون من الوقائع شيئاً على الاطلاق ؟

والمؤلف يأخذ الى حد كبير بمبدأ الفلسفة العملية — فلسفة ديوى ووليام جمس (pragmatism) ، ففى رأيه كما فى رأى الاستاذين أن النظريات الصائبة هى تلك التى تؤدى الى الغرض المقصود والتى تنفع فى الواقع وفى الحياة العادية ، حقا أن للمنطق روعته وللعقل حكمه ، انما الواقع ابلغ واروع ، فالمحك لهذه النظريات فى عرفه هو اثرها فى الحالات التى تعرض لنا فى حياتنا اليومية

الفصل الثالث

النشاط الحر

يحسن بنا عند ماتتكلم فى باب الطاعة ان ننبه القارىء إلى بعض الأمور الأولية الخاصة بحالتنا نحن أو بحالة ذلك المعهد الذى نسميه قسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية . هذا المعهد له حكم خاص وقاعدة مستقلة يقوم عليها . فهو لا يشبه المدرسة إلا من بعض الوجوه الثانوية . ولكنه أيضاً لايشبه النادى الرياضى إلا من بعض النواحى السطحية التى لاأهمية كبيرة لها ، وبعبارة أخرى نستطيع ان نقول ان له حكما خاصاً قائماً بذاته

صحيح أننا نسعى لتقوية عقول الصبيان وتنمية أجسامهم ومن هذه الوجهة اذن نستطيع ان نزعم أننا نشبه المدرسة والنادى الرياضى ، ولكن الشبه بينه وبين هذين المعهدين لايعدو هذه النقطة ، وفى هذا الصدد نستطيع ان نقول بحق ان هذا المعهد يشبه الحياة العادية اليومية ، فهو يشبه الاسرة ويشبه العمل والنشاط والسعى ، ويشبه غير ذلك كثيراً . إلا أن أوجه الشبه هذه بعيدة ومصطنعة

الحق أنه معهد قائم بنفسه ، لايشبهه معهد آخر من المعاهد التى نبتت فى التربة المصرية من منتديات ومجتمعات وجمعيات ومعاهد

وأخص مايتميز به هذا المعهد ، وبجعله متفرداً بعوامله هو محاولته تربية النشء تربية اخلاقية وعقلية وبدنية عن طريق النشاط الحر (Free activity) وسبيله الى ذلك أو فرصته التى يستعملها لهذا الضرب من النشاط هو ساعات الفراغ تلك الساعات التى اصطلحت البيئة والعرف والمدرسة على انها ملك للصبى يتصرف فيها كيف يشاء ويقضيها فى اللعب واللهو والمراح ، والمؤلف يعتقد ان هـــذه

الساعات قليلة وضئيلة ولا تكفي لحاجات الصبي النفسية والاجتماعية والعقلية بحال من الأحوال . ولكنه لابد من الدخول في مثل هذا الآن ، وقد يعود اليه في مجال آخر

وعلى أي حال يسعى قسم الصبيان إلى استثمار هذا الوقت بشكل يعود على الصبي نفسه خاصة وعلى الجماعة البشرية عامة بأحسن النتائج . وسبيله الى ذلك هو ما قلنا فيما سبق النشاط الحر ، أو الميل الفطري الى الحركة والنشاط

وهذا الضرب من النشاط له قيمته في التربية وله أثره الذي لم يعد يجدينا انكاره أو التنكر له . فلا تكاد نفتح كتابا من كتب التربية الحديثة إلا ونرى فيه الفصول الضافية التي تعالج هذا الموضوع . ونستطيع ان نقول من غير تردد أن علماء التربية قد أجمعوا فعلا على ان السبيل الى الاخلاق هي في ذلك الضرب من النشاط ، وأنه على حسن توجيهه سواء أكان هذا التوجيه بفعل الانسان أو بفعل الظروف يتوقف مصير الصبي

ولكن شيئاً من هذا لايعنينا هنا في الواقع لاننا سبقنا وفصلناه في كتاب آخر (التربية والاخلاق) وبينا اثره في تكوين الاخلاق على العموم ، وانما كل ما يعنينا هنا هو ماهية النشاط الحر وليس اثره في الاخلاق

والنشاط الحر (free acitvity) هو نوع من الحركة والسعي يقوم بهما الكائن بدافع نفساني من غير أن يكون للغير دخل فيه من طريق مباشر . فالكائن يوجد في حالة تحبب اليه بعض أنواع الحركة والفعل فيفعل وينشط بشرط ان لايكون مضطراً للحركة والفعل بعامل قهري سواء أكان ذلك العامل بارادة انسان أو بحكم الظروف . فالصبي الذي يدخل حجرة الدرس لأن الميعاد أزف قد يجوز أن يكون مرغماً وقد يجوز أن يكون حر الارادة ، أي أنه قد يكون حراً في هذا النشاط وقد يكون مضطراً . وجلوسه في حجرة الدرس هو بعض انواع النشاط ايضاً وقد يكون حراً وقد لا يكون ، أما الصبي الذي يخرج من الفرقة في حالته

الاعتيادية بعد أن يكون قد استوفى ساعات الدراسة فنشاطه هذا حر . ونشاطه يكون حراً أيضاً عندما ينظر الى الدمى والصور والملابس والظواهر الاخرى التى تعترضه وتقع تحت حسه اثناء سيره فى الطرقات والرجل الذى يجلس باحدى المقاهى يوم الجمعة وأمامه فنجان القهوة يكرع منه وبيده لفافة تبغ ينهل منها يتلفت فى الغادين والرائحين فنشاط هذا الرجل حر بشرط أن يكون فى حالته الطبيعية

وليس للنشاط الحر اذن غرض خارج عنه يرمى اليه . أى أنه فعل بغير غاية مستقلة عنه يسعى اليها ، نقصد من هذا أن نخرج العمل الذى يتكسب منه الانسان من دائرة هذا النوع من النشاط . لأن عمل الانسان يخرج عن هذه الدائرة بشرط أن لا يكون مما يلذ له ويستهويه

وقد يدخل الفعل فى دائرة النشاط الحر طوراً ويخرج عنه طوراً آخر . فبحث الاستاذ الدكتور طه حسين فى الادب الجاهلى وتنقيبه فى الكتب عنه واستقصاؤه له هو بعض أنواع النشاط الحر . ولكن هذا الامر بذاته قد يكون نشاطا اجبارياً لطالب فى كلية الآداب

فاللعب نشاط حر ولكن العمل ليس كذلك ، وهذا فى الواقع هو الفرق فى نظرنا بين اللعب والعمل ، فالاول منهما نوع من النشاط يقوم به الكائن بدافع نفسانى بينما الاخير يقوم به بدافع خارج عنه ، فكل مايفعله الكائن من تلقاء نفسه لعب أو نشاط حر وكل ما فضل أن لا يفعله فيما لو ترك لنفسه فذاك هو العمل أو الشغل . وعلى هذا فقد يكون الامر الواحد لعبا أو نشاطاً حراً لانسان بينما يكون شغلا وضرورة لانسان آخر . وذلك كالنجارة مثلا يمارسها النجار كضرورة من ضرورات العيش أو كعمل يقوم به لاغراض خارجة عن العمل ذاته . وهى أيضاً نشاط حر ولعب وغرض فى نفسها لعضو مجلس النواب الذى يمارسها فى وقات فراغه حبا فيها

وهذا فى الواقع بحث فى الغايات والوسائل لا نريد أن نطيل فيه هنا ، خصوصاً وقد سبق أن شرحناه بالتطويل فى كتاب آخر

وانما كل ما يهمنا هنا هو أن نقرر أن سبيل قسم الصبيان الى تقويم الاخلاق هو النشاط الحر لابل نستطيع أن نقول أن اللعب بأنواعه — اللعب المنظم المسدد الى بعض غايات التربية هو سبيلنا الى الاخلاق

فنحن نريد أن يكون الصبي حراً فى تصرفاته فى معهدنا — حراً لينشط ويسعى ويعمل — ونحن على افعاله واعماله ونشاطه رقباء . نريد أن يلعب ويختار لنفسه نوع النشاط الذى يلائم ميوله ومؤهلاته واستعداداته ثم نشترك معه فيم هو آخذ به من ذلك النشاط

أظن أن القارىء قد ادرك الآن أن اساس التربية الاخلاقية عندنا هو الحرية وليس القهر أو الغصب ، الاستقلال وليس الطاعة ، واظنه اكتشف لنفسه الآن بعض الصعوبات الكثيرة التى تكتنف مثل هذه السبيل ، وأما أن لم يكن قد اكتشفها بعد فما عليه الا أن يتخيل مدرسة بها عدد كبير من التلاميذ يقضون يومهم بتمامه خارج حجرات الدراسة أحراراً يروحون ويغدون ويختارون لانفسهم ما يحلو من أنواع النشاط ، وليلاحظ القارىء أيضاً أنه يسهل على استاذ واحد أن يتملك ناصية الحال فى حجرة بها مائة تلميذ جلوساً بينما يعجز نفس هذا المدرس عن أن يضبط عشرة تلاميذ أحرار يلعبون كيفما يشاءون

فى الحالة الاولى — أى فى الفرقة — يعالج الاستاذ الفرقة على انها كائن واحد أو مجموعة واحدة ، ولكنه يضطر فى أوقات الفراغ على أن ينظر الى كل تلميذ على أنه حالة خاصة قائمة بنفسها ، وهذا بالضبط ما يفعله قسم الصبيان ، فلكل صبي فيه حالة خاصة بنفسها والقسم مضطر لمعالجة مائة حالة عندما يكون فيه مائة صبي فانظر كيف تكون مسألة الطاعة من المعضلات التى تقابلنا على رأس كل طريق

أنظر كيف نحن فى حاجة أشد من حاجة المدارس لأن نحمل الصبيان على أن يطيعوا أولياءهم فى هذا القسم . لو تأملت فى هذا لوجدت أننا أقمن بأن نتطلب طاعة الصبيان التى نحن فى حاجة أمس اليها من حاجة المدرسين والاساتذة

تعرض لنا أمور كثيرة ومشاكل يهون حلها اذا ما كنا نفرض الطاعة على الصبيان فرضاً . وكم كانت تهون مأموريتنا لو سلكنا هذا السبيل ، فليس آمن منها لراحة بالنا واراحتنا مما يعترض سبيلنا من المصاعب

مع أن هذه حالنا ، ومع ان كثيرا مما يعرض لنا نستطيع حله فيما لو فرضنا الطاعة على الصبيان فرضاً وهو أمر سهل ميسور . إلا أننا نتحرز من هذا كثيرا ونتريث ونتردد قبل أن نقدم على هذا . وذلك لسبب بسيط جدا وهو أننا لم نقبل الصبيان فى المعهد لنحل معضلاتنا نحن . وما معضلاتنا إلا أن نطاع وتقبل نصائحنا من غير مقاومة — لم نقبل الصبيان لنحل مشاكلنا نحن — بل قبلناهم لنحل مشاكلهم ومعضلاتهم هم وما مشاكلهم ومعضلاتهم إلا كيف يكونوا أخلاقهم وعلى أى أساس يبنون نماذج تصرفاتهم ، هذا بالذات ما نريد أن نجد له حلا موافقا

وعلى هذا فنحن نفضل أن نتعب ونختار ان يعصانا الصبيان على أن لا نمهد لهم الظروف ونوجد لهم البيئة الصالحة لنموهم الاخلاقى الاكيد . فنحن نقبل أن نتعرض للعصيان والمقاومة لكى نعبد لهم السبل حتى تتقوى أخلاقهم وتتقدم ، وبعبارة اخرى نحن نسلك الطريق الشائك مختارين حتى نقدم فرص النمو والتقدم الخلقى والاجتماعى

بهذه الروح نسير معهم وعلى هذا الاسلوب نعالج حالاتهم التى تتطلب العلاج وليس معنى هذا أننا معصومون من الخطأ ، أو أننا لم نعاقب ونحرم ونطرد بعض الصبيان ولكن هذه الحالات شاذة نادرة وليست داخلة فى برنامجنا الاخلاقى ، وانما نلجأ اليها — عند الضرورة — وقاية للصبيان الآخرين وليس علاجاً لبعض

الحالات ، ولحسن الحظ لم نلجأ لمثل هذه الوسائل بشكل جدى بأى وجه من الوجوه . وذلك لأن كل من لهم يد فى ادارة هذا القسم هم ممن يلمون على نوع مايطبائع الصبيان فلم نجد انفسنا مضطربين لأن نسلك هذا السبيل الا فى القليل النادر

وبالاختصار نستطيع ان نؤكد — كما اسلفنا — ان الطاعة شيء فى مصلحة المربين اكثرمما هولخيرالصبيان فى معظم الحالات . وان المربى ، عندمايضيق ذرعا بالصبي ويعجز عن ان يجعله ينشط راضياً مختاراً ، يلجأ الى وسائل الغصب يفض بها النزاع ويريح باله من عناء الاقناع والممارسة

والآن نعود الى الوقائع المادية التى هى الاصل فى هذا الكتاب ، لنحاول ان نرى متى تستطيع وسائل الاقناع ان تأتى بالغرض المقصوده ومتى تفشل عن ان تقوم بذلك

الفصل الرابع

حالة بغير علاج

هنالك حادث أظننى فشلت فيه فشلا ذريعاً ، وليس يعود اللوم فى هذا على أحد سواى ، وأنا مستعد لان اتقبل نصيبي من اللوم فيه فلا أرغب فى ان اهرب من المسئولية بوجه من الوجوه أو انتقص من هذه المسئولية بأى حال من الأحوال ، وأرجو من المربين والمشتغلين بالتربية على العموم أن يحللوا هذه الحالة تحليلا دقيقاً ويعينونى على تفهم كل تلك العوامل التى تكون قد غابت عنى

إنى أهتم الاهتمام كله بأوقات الصبيان واشعر انه من واجبي أن أساعدهم على الاستفادة من أوقاتهم معنا الى أقصى حد ممكن ، ثم انى اشعر أيضا شعوراً متغلغلا فى الأعماق بأن المدرسة المصرية على حالتها الراهنة لاتستغل ساعات الطلبة كل الاستغلال الذى يعود على حياتهم كلها بأحسن النتائج ، أشعر أن المدرسة مقصرة جداً فيما يتعلق بصحة أبنائنا وحالتهم الاجتماعية والاخلاقية فكل جهودها موجهة فقط الى حشو أدمغتهم الصغيرة ببعض الحقائق التى لاتمت لحياتهم العادية الواقعة بسبب

ولست أعلم فى الواقع الصلة الكائنة بين صبى فى الحول العاشر من عمره يقطن الدر من أقاصى الصعيد وبين نهر الجانج فى الهند والامازون فى أمريكا وبكين فى الصين ، لاعلاقة البتة تجمع بين حياة هذا الصبى فى بيئته الخاصة وبين هذه الجهات البعيدة التى قلما يذكر اسمها فى حياته كلها ، ومع ان فى حمل الصبي على استظهار مثل هذه الحقائق ارهاقا له الان المدرسة لاتبالى بهذا الارهاق وبهذا الاعتساف ، بل هى تشعر ان هذا من عملها الذى وجدت لاجله وهى فى نفس الوقت لاتهتم

لحيانه فى بيئته ولا بصحته العامة ونشاطه وحيويته

هذا شعورى الذى أحمله بين جنبى وأسير به وأتعامل مع الناس على مقتضاه. ولست أرغب الآن وفى هذا الظرف ان أقدم بحثاً فى أحوال المدرسة فى بلادنا، لانه وان كان مثل هذا البحث من الامور الحيوية وقد نعود اليه فى فرصة أخرى — الا أننا نبحث فى أمر آخر فى هذا الفصل، ولكن مثل هذه المقدمة ضرورية على ما أظن حتى يستطيع القارىء أن يرى حالتى النفسية فى معالجتى لهذه الحالة التى سأوردها الآن

للسبب المتقدم أريد من كل صبى يحضر الى القسم ان يأخذ نفسه ببعض الالعاب الرياضية المختلفة. وذلك أولا لفائدته الجسمية وثانياً لتقويم أخلاقه. فالصبى الذى يمكث ثمانى ساعات فى اليوم أو ما يقرب من ذلك يستمع للدروس هو حاجة ماسة الى الحركة والنشاط لان هذه الحركة وذياك النشاط من مستلزمات حياة الصبى وتقدمه فى الصحة العامة

ولسنا نكون مغالين — على ما اظن — إذا ما صرحنا بأن الألعاب الرياضية هى من الأمور الجوهرية فى بناء الأخلاق. ففيها يقوم الصبى بنصيب من المجهودات المشتركة لخير الجماعة. وفرق بين ان يدرس الصبى ليظهر على أقرانه وبين أن يلعب لينصر جماعته أو فرقته فالمجهود فى الحالة الاولى ليس له غرض إلا الصبى نفسه فهو ذاتى فردى وأما فى الحالة الثانية فهو اجتماعى وغيرى

ولا أظن أحداً من الذين يقرأون هذا الكتاب يختلف معى فى ان اللعب ضرورة قصوى لتقدم صحة الصبيان ونموهم. لا أظن ان انساناً ينازعنى فى هذا لان هذه مسألة مفروغ منها على ما أعتقد

وأما الاخلاق فهذه قضية أخرى نظن ان مجال الخلاف فيها يتسع للتضارب عند القراء، ولكنى أصرح أنى لم أجد من علماء النفس والتربية من يخالفونى فى هذا

الزعم على تعدد المراجع التى رجعت اليها . فكل العلماء مجمعون على ان مجال الاخلاق فى المدرسة لا يوجد فى مواد التدريس — ولكنه يوجد فى مجال المواد الخارجة عن المنهج مثل فرق الالعاب الرياضية والنوادى المدرسية وجمعيات التعاون وكل المجهودات المشتركة التى يقوم بها الطلبة مجتمعين على العموم

فلهذين السببين مجتمعين — لصحة الصبيان وأخلاقهم — أشجعهم على ان يلعبوا معا عندما يحضرون الى قسم الصبيان . وأبغض الاشياء الى ان أرى أحدهم جالسا على مقعد يشاهد حركات الغير ونشاطهم . أشعر ان الوقت الذى يقضيه الصبى على هذه الحالة ضائع وان الصبى الذى يفعل هذا بغير داع من المرض أو الحالات النفسية المختلفة يحتاج الى كثير من العلاج والانتباه

بعد هذه المقدمة الضرورية أروى الحادثة الآتية التى أظن أنى فشلت فيها فشلا عظيما ذريعاً والتى أظن ان مجهوداتى فيها كانت ضائعة وأنى لم أخرج منها الا بدرس واحد وهو انى فشلت وانى مطالب باستقصاء أسباب فشلى فيها

تعود أحد أعضاء القسم لايتجاوز سنه الثالثة عشرة ان يحضر كل يوم لمدة ساعة أو ساعة ونصف ، وهو صبى ظريف تعلو شفتيه ابتسامة تلازمه دائما . بشوش وخفيف الظل يحبه كل الصبيان . ولكنه ضعيف الجسم هزيل الجسم محدودب الظهر بشكل يدل على حاجته القصوى الى الرياضة البدنية والنشاط الجسمانى بانواعه المختلفة . وقد علمت من والده أنه معرض للامراض الكثيرة ليس لعيب أو مرض ولكن لرقته وضعفه الجسمانى العام ولانه يملؤه الحركة والنشاط ويتهرب منهما فليس أحب اليه من الجلوس ومشاهدة الصبيان الآخرين يلعبون . استشرت فيه طبيب الجمعية فاخبرنى انه فى حاجة الى الحركة والنشاط حتى يستقيم جسمه ويقوى

أخذت اعالج هذا الصبى بكل الطرق الممكنة حتى يلعب وينشط ويأخذ قسطه وافراً من الالعاب الرياضية فلم أوفق . تحدثت اليه كثيراً فى هذا ولكن انعانى

ذهبت أدراج الرياح ولم استطع أن أدفع به الى ميدان الجهاد والنشاط . ضربت له على كل النغمات فلم أجد فيه وتراً حساساً . أخذت أوقظ فيه كبرياء النفس وابين له أن صبياً يوجد بين الصبيان يجب أن يعمل ما يعملون ، يجب أن يكون مثلهم وليس أقل اقداماً منهم ، يجب أن يحشر نفسه بينهم ويناضل معهم وعنهم ، يدافع عن فرقة ويهاجم أخرى ، يتعلم العابهم ويلعب معهم

وعدت فى يوم آخر أتحدث عن صحته ورقة جسمه وضعفه الظاهر الواضح واحد يدب ظهره وبينت له أن لا شيء ينقذه من كل هذه الا أن يشترك مع باقى الصبيان فى العابهم ، كلمته فى هذا وأخبرته انى أحب أن أراه ملىء الجسم متوثباً يفيض منه النشاط وانى لافخر به إذ تنتصب قامته ويستقيم ظهره ويغزر دمه

كل هذا وغيره فعلته معه ولكنى لم افلح فحزنت وتألمت إذ وجدتنى عاجزاً عن أن أساعد هذا الصبي الذى أحبه كثيراً لذكائه ونباهته . وعلى كل حال لقد استقر فى نفسى بأنى عجزت وفشلت ، ثم تواضعت مع نفسى على أن اقر بهذا الفشل فى الوقت الراهن وأترك المسألة للزمن عسانى استطيع أن اعرف الدوافع الحقيقية لتصرف هذا الصبي وأتمكن من معالجة حالته علاجا ناجعاً

كنا إذن نلعب جميع أنواع اللعب من عنيف وسهل بينما هذا الصبي يحضر الى قسم الصبيان فى الميعاد الذى يروقه ثم يأخذ مقعده فى مكان عال ويقعد يراقبنا ساعة أو بعض الساعة ثم يشهد حفلات الايناس التى نقيمها من آن لآخر من غير أن يقوم بقسطه فى خدمة الجماعة ، كان يساهم بالنظر والتطلع الى هذه جميعا ثم يقفل راجعا الى منزله من غير أن يكون قد نال ما يلزمه من أنواع النشاط الجسمانى والاجتماعى ، كل هذا ولم يكن كلامى معه ليجدى نفعا فلم يبق امامى سوى طريق القهر والارغام ، وهذا الطريق بالذات هو ما يجدر بى ان لا اسلكه والا فسدت الاغراض التى اسعى اليها ، كنت انأى بجانبى عن هذا السبيل لأن اثره فى

تكوين الاخلاق مشكوك فيه . ولأن علماء التربية ينصحون بعدم استخدام القهر والاجبار متى كان ثمة مندوحة عن ذلك

قلنا ان هذا الصبي تعود ان يجلس ويترك جميع انواع النشاط لغيره من الصبيان ولكن المسألة لم تنته عند هذا الحد ، لانني لا اشعر ذات يوم الا وصبي آخر يجلس بجانبه وينتحل المعاذير لهذا التصرف . فهو يجلس ايضاً لأنه تعبان ولأن رجليه لاتستطيعان حمله في هذا اليوم وهو لا يحب أن يتحرك . وفي يوم ثان انضم لهما آخر وفي ثالث رابع وفي رابع خامس — خمسة صبيان في أيام قلائل خرجوا من دائرة النشاط بأنواعه الى دائرة الخمول والجمود

شعرت عندئذ أنني لو تركت الامور تسير في مجراها لانقلب قسم الصبيان الى مكان يجتمع فيـــه الصبيان ليجلسوا ويفعلوا مايروق لهم أو يتحدثون في كل المواضيع فيقتلون أوقاتهم من غير فائدة تعود عليهم ، وهذه حال لانروق لأن الفلسفة التي بني عليها قسم الصبيان هي هذه . النشاط أبو الاخلاق . فمتى كان النشاط منصرفا بأحسن الطرق تكون الاخلاق الناتجة من أمتن الاخلاق وأقواها أما الجلوس والتحدث الى غير غايه فليسا من دواعي الاخلاق

ثم مازاد المسألة تعقيدا شعوري ان هذا الصبي ورفاقه سلكوا هذا السبيل مدينا لنا . بمعنى أنه قد وقر في نفوسهم أننا نعجز عن أن نفعل شيئاً معهم . وأنهم أحرار فيما يفعلون وان ادارة قسم الصبيان لاتستطيع أن ترغمهم على امر هم لا يرغبون فيه ، شعرت بكل هذا لأن الصبي الأول كان يسير بيننا شامخا بأنفه رافعا رأسه يبتسم بشكل يمكن تفسيره على ألف وجه ووجه . شعرت بكل هـذا وسكت وكظمت ماينفسي فلم أفاتحه الى ان طلب الى مساعدي ان افعل شيئا فقلت

— ماذا تريد ان افعل ؟

— لاأعلم

ـــ انا لاأقصد بهذا انى عجزت وانما أريد ان اعلم منك اسباب شكايتك

ـــ فقال أنا لست راضيا عن تصرف هذه الشلة

ـــ فقلت ولا أنا أيضاً ، وانما أريد أن أعلم لماذا انا وانت غير راضين . قد يكون اننا نحن المخطئان وليس هؤلاء الخمسة صبيانا

ـــ فقال ان بى شعوراً خفيا انهم يقصدون الى التحدى فهل تقف مكتوف اليدين بينما خمسة صبيان يتحدون انظمتنا ؟ هل تريد أن يوقر فى نفوسهم ان معهدنا عاجز لدرجة ان يتحداه صبي واحد ؟

ـــ فقلت ، قد يكون هذا نفس شعورى . قد يجوز ان شعورى يتفق معك فى ان هؤلاء الصبيان يتحدون المعهد والقائمين به ، ولكنى لاأريد ان اعاقب انسانا فاجعله مسئولا عن شعورى انا . الست ترى معى ان شعورنا قد يكون خاطئا ؟ الا يجوز ان نكون ظالمين لهؤلاء الصبيان اذا ما آخذناهم بما نشعر به نحن نحوهم ؟ وخصوصا لان شعورنا فى هذا الظرف بالذات ليس لصالحهم ؟ الحق اننى لاأستطيع أن اظن السوء بالناس ثم اؤاخذهم على زعم ان هذا الظن حقيقة واقعة

ـــ فقال الحق معك ، ولكن ماذا تريد ان تفعل ؟

ـــ فقلت لن افعل شيئاً الا اننى ارجو ان يثوب هؤلاء الصبيان الى رشادهم ويشعروا أننا فيما نفعل لانقصد الا الى خيرهم

ثم تركنا هذه المسألة عند هذا الحد بعد أن اتفقت مع مساعدى وهو شاب ذكى يستطيع ان يفهم الأمور على حقيقتها ، تركت المسألة اذن ، وكنت قد أتركها من غير حل الى حين استطيع ان انفذ الى قلب هذا الصبي فاحرك أوتاره لينشط فى السبيل الذى يؤدى به الى الخير ، كنت أستطيع ان افعل هذا لولا انه قد دخل فى الموضوع عامل جديد . واليك التفصيل

أردنا أن نلعب كرة السلة ، فاخذنا نكون فرقتين وأخذ قائدا الفرقتين

يختاران اللاعبين فاختار أحدهما صبياً . ولكنه رفض ان يلعب فقلت له لماذا هذا الامتناع . وقبل ان يجيبني هم الصبي الذى هو أصل كل هذه المشاكل وقال « هو حر ، أليس كذلك ؟ لايريد ان يفعل وكفى . لايجب ان يسأل العضو لماذا يفعل هذا أو لايفعله . نحن أحرار ولا يستطيع كائن من كان ان يرغمنا على شيء لانريده . والله عجايب »

وقفت أستمع لكل هذا بصبر وأناة الى ان فرغ مما يريد ان يقول فلم أغضب ولم أثر . والحق انني لو طاوعت عواطفي لغضبت وثرت ولكان هذا الصبي يدفع ثمن هذه الغضبة وتلك الثورة لانني شعرت ان التحدى ظاهر أولا وانى انا المقصود منه ثانيا . ولكني تمالكت نفسي وأخذت أقلب المسألة فى رأسي عساني أستطيع ان اهتدى الى حل عادل وسريع لأن الموقف يتطلبه . وأكثر ماأريد ان احرص عليه فى هذه المواقف هو ان لاأفعل شيئا وأنا متأثر بعاطفة أوشهوة ، وبينما انا اقلب المسألة لاحت منى التفاتة فرأيت مساعدى يرقبني ويبتسم كأنه يقول « لقد أتاك بالاخبار من لم تزود » أرأيت كيف انه يتحدانا جميعا وكيف انه غير بريء فى تصرفه ؟ ها قد تكشفت لك الحقيقة التى كنت تنتظرها فماذا أنت فاعل الآن ؟ » فرددت تحيته بمثلها وتبسمت ثم التفت الى الصبي وقلت « هل لك ان تأتي الى مكتبي للتحدث قليلا ؟ »

— ثم سألته ماذا دفعك على ان تقول ماقلت ؟

— قال لاشيء سوى انى استغربت كيف تريد ان تشرك عضواً فيما لايريدان يشترك فيه

— وهل يهمك ان لايشترك معنا فى برنامجنا ؟

— كلا لايهمني ذلك . فليشترك معكم من يريد ان يشترك لكني لاأحب أن أرى عضواً يرغم

ـــ ومن أرغمه ؟

ـــ حضرتك

ـــ وهل اشترك معنا أصلا حتى يجوز لك ان تقول انى أرغمته ؟

ـــ كلا لم يشترك

ـــ اذن لم يكن هنالك ارغام

ـــ لم يكن بعد

ـــ اذن لقد تسرعت

ـــ كلا لم أتسرع لانى رأيتك توشك أن ترغمه

ـــ وهل تقاوم شيئاً لم يوجد بعد ؟ ألم يكن الاجدر بك تنتظر لترى ماذا سيكون ؟

ـــ على كل حال أنا شعرت أنه قد يرغم على ان يشترك مع الرفاق فى اللعب فسارعت الى نجدته

وما هو مركزك حتى تسارع الى الاعتراض على نظم المعهد أولا وتعترض من غير داع الى الاعتراض ثانيا ؟

مركزى انى عضو هنا واعترض على مالا يروقنى

ـــ الحق أنك تغاليت فى تصرفك وعلى هذ فسوف أعاقبك على تصرفك هذا بأن أحرمك من امتيازاتك فى قسم الصبيان ان لم تخضع لنظاماته . ونظاماته هى ان يكون لك ما لجميع الاعضاء وعليك ماعليهم يجب ان تشترك معهم فيما هم آخذون فيه

وان لم أرد ان اشترك معهم ؟

ـــ اذن تكون لا تصلح لمعهدنا الا اذا بدلت من تصرفك وسوف ترى

ثم انصرف

وفى يوم آخر رفض هو وأصدقاؤه الاربعة ان يشترك مع باقى الاعضاء فى نشاطهم ، فامرتهم جميعا ان يغادروا المعهد ويبقوا بعيدين عنه أسبوعا كاملا وبعد الاسبوع نرى كيف يكون تصرفهم ، فهموا جميعا بالانصراف من غير ان يعترضوا الا واحداً منهم وقر فى ذهنه انه يستطيع ان يقاوم الى النهاية ويفوز لاننا سنعجز عن ان ننفذ أوامرنا . وكان ماقال بالحرف « كلا ان أخرج ولن يستطيع أحد ان يخرجنى من هنا . أنا عضو وان يمكن لانسان ان يحرمنى من امتيازاتى ، ولكنه خرج على أى حال

هذه هى احدى الحالات الثلاث التى استعملت فيها العنف فى بحر الثلاث السنين التى قضيتها مع هؤلاء الصبيان لم استعمل العنف ان ثلاث مرات وذلك مع سبعين صبيا يحضرون الى قسم الصبيان بمعدل ٦٠٠ مرة فى الشهر

والآن أنا أشعر انى أخطأت فى استعمال العنف على أى حال ذلك لسببين اولا لان فلسفتى فى التربية تسقط العنف من حسابها وتقودنى الى الاعتقاد بأنه من المستطاع ان نربى الصبيان والاطفال على العموم من غير ان نلجأ اليه ، وليس قناعتى بهذا المبدأ مبنياً على الامور النظرية فقط أو المنطق المجرد عن الواقع الملموس . بل هو مبنى على المشاهدة والممارسة والاختبار . ودليلى على ذلك هو ما مر بى من معالجة لعدد كبير من الصبيان لمدة كبيرة كهذه

وأما السبب الثانى فى انى لاأؤمن بالعنف فهو هذا : الالتجاء الى العنف فى الواقع انما هو اقرار من المربى بعجزه عن ان يصل الى اغراضه من طريق آخر ، ومتى عجز المربى لايحق له ان يتحكم فى الصبيان بهذا الشكل ويحملهم قهراً على ان يخضعوا لما يريد منهم فالقوة فى نفسها ليست برهانا على ان المربى يصيب فيما يريد ان يفعل . ثم انها سلاح خطر ليست فيه الضمانة الكافية لأن لايستعمل فى غير محله ، ولأن الطريق الآخر — طريق الاقناع والممارسة صعب شاق غير معبد نجد ان المربى ميال

بطبعه وبدوافعه النفسية الى ان يتجنبه ويلجأ الى اسهل السبل . وليس هذا بمستغرب لأن طبيعتنا تدفعنا الى تجنب المسالك الشاقة والطرق الوعرة . نفعل هذا وقد لا ندرى اننا نفعله . ومتى كان الامر كذلك فيحسن بنا ان نحترس كل الاحتراس من طبيعتنا عند ما نعالج الاطفال

وثمة سبب ثالث وهو متعلق بالظروف الخاصة لهذه الحالة . ذلك اننى شعرت ان التحدى موجه الى والى معهدنا . ثم ان هذا الشعور قد وقر فى نفسى وان كنت قد حاولت ان اتخلص منه . فمن ادرانى اننى عند ما استعملت العنف مع ذلك الصبى اننى لم اكن واقعا تحت هذا النفوذ ؟ هل استطيع ان ازعم اننى لم أكن البتة مسوقا بأى عاطفة ؟ هل فى مقدور انسان من ائمة التربية ان يزعم اننى لم أكن مدفوعا بعامل العواطف الدفينة على ان اخلط بين تقويم أخلاق ذلك الصبى وبين عقابه على هذا التحدى ؟ وبصفتنا مربين لا يجب ان نهتم سواء أكان الصبى يعاقب على اخطائه أم لا يعاقب . يجب ان لا نهتم لشىء سوى تعهد اخلاقه لتستقيم

لهذه الاسباب جميعا ولغيرها يدعو مؤلف هذا الكتاب الى الاحتراس من استعمال القهر كوسيلة من وسائل التربية كما بينا فى كتاب سابق (التربية والاخلاق) ولهذا السبب يدعو أيضا الى انه يجب على المربين ان يحللوا نفسياتهم هم قبل ان يحللوا تصرفات الاطفال ونفسياتهم . يجب ان يحللوا الاجراءات التى يتخذونها مع الاطفال لئلا تكون احداها منبعثة عن دوافع أخرى غير تقويم سلوكهم

وعلى كل حال لقد انتهت مسألتنا عند هذا الحد ولم يعد هؤلاء الصبيان الى مثل ذلك التصرف لابل فهموا ان لحرياتهم حدوداً . وانه يحسن بهم ان يقيموا تلك الحدود لانفسهم والا اقامتها لهم السلطات المختصة

الفصل الخامس

ما يرفضه الصبي يقوم به المربي

الحالة الآتية تكاد تكون تافهة . ولم نكن لنوردها هنا لولا أنها تخدم قضيتنا التي أوردناها عن الطاعة عامة . يذكر القارىء ان نظريتنا التي أخذنا على انفسنا الدفاع عنها هي هذه : ان الطاعة ليست دائماً من الفضائل وأنها ليست حتما وسيلة من وسائل التربية ، لابل نستطيع ان نستغني عنها اذا تحرزنا من أن نوجد لها مجالا للظهور واذا لم نفرضها فرضاً على الصغار ، وبمعنى آخر يجدر بالمربي الملم بفنه ان يتحاشى بقدر استطاعته ان يدفع الامور الى درجة العصيان ثم يأمر ثم ينتظر من الصغير ان يطيع . لأنه اذا وصلت الامور الى هذه الدرجة لابد أن يضطر المربي في آخر الامر لأن يحمل الصبي بالقوة على أتيان ما يريده منه ، وهـــذا في ذاته مفسد للعلاقات الحسنة بينهما

ثم يلاحظ أيضاً أنه عند هذه النقطة يتغير وضع الامور فبعد أن يكون المربي مهتما للفعل الذي سوف يفعله الصبي ويشعر أن هذا الفعل في ذاته مفيد . تنتقل المسألة من هذا الوضع الى وضع آخر وتصير نزاعا على مسائل شخصية بين الصبي ومربيه . وبالطبع ان وضعها كهذا مضر بقضية التربية كل الضرر ولا يعود منه شيء مطلقاً على الصبي ولا على المربي ، ولا يمكن لانسان عاقل أن يرى أقل فائدة تعود من مثل هذا النزاع الشخصي ، لهذه الاسباب ولغيرها ننصح ان لا توضع النصائح للصبي في صيغة الاوامر بل في صيغة الارشاد حتى اذا خطر للصبي ان يرفض لا تعود الامور الشخصية تربك العلاقات

دخلت مرة فوجدت صبياً يأكل بعض الفاكهة ويرمي بقشورها الى أرض

المعهد كأنه فى الشارع سواء بسواء . فاول ماخطر لى أن هذا التصرف قبيح وقذر فى نفس الوقت وهو لايدل مطلقاً على أبسط قواعد اللياقة والذوق فقلت له ما جال فى نفسى ثم طلبت اليه بطريقة لطيفة ان يجمع مانثر من هذه القشور فقال « حاضر بعدين أجمعها »

شعرت فى الحال ان هذا الصبى لم يكن يقصد الى مخالفتى لأنى لم آمره بشىء ، وأغلب الظن ان الصبيان لم يشعروا ان فى هذا مخالفة لأوامرى لأنى فى الواقع لم أصدر أوامر ، وانما « بعدين » هذه لا تغنى فتيلا ولا تترك المعهد نظيفاً . فامام هذا الجواب لم يكن أمامى سوى ان أصدر له الامر صريحاً . ولكن فى هذا خطرا على علاقتى بهذا الصبى لانه ان فعل فسيشعر أنه مضطر لذلك عن طريق الالزام وأما اذا لم يفعل فسيزيد المسألة حروجة ويخرجها من موضعها الاصلى — أى باب النظافة واللياقة — الى نزاع شخصى بينى وبينه وينتج من كل هذا أننا ننسى الغرض الاصلى . أقول أن كلا الامرين — الالزام أو العصيان — غير مرغوب فيه . ولذلك أعملت الفكرة لحظة لأرى مخرجا لى وله لانه لا داعى لاحراجه أو احراجى أنا

فكرت فى الحل لحظة قليلة فوصلت اليه وشرعت فى التنفيذ فى الحال وبأسرع من شروعى فى التنفيذ أخذ الصبى يجمع بقايا الفاكهة التى نثرها على أرض القاعة ولم يكن الحل الذى اهتديت اليه شيئا غير ان أجمعها أنا بنفسى وفعلا انحنيت لالتقطها واحدة فواحدة . فما كان من الصبى إلا أن سارع الى التقاطها على مشهد من اخوانه ، وليس هذا فقط ولكنه أخذ يعتذر لى ويرجونى ان لا أتعب نفسى فى جمعها لانه سيجمعها فى الحال . وأما من جهتى أنا فانى قلت له ان لا داعى للاعتذار وأنه لامانع عندى من جمعها بنفسى . وفى الحق أننى لم أفرغ من جمعها قبل أن كان كل الصبيان الموجودين يعاونوننا فى هذا الامر

كنت أستطيع ن احل المشكلة بأن أطلب الى خادم المعهد ان يجمعها وقد كان على قيد أشبار منا . ولكنى لم ارد ذلك لأنى اردت ان اعلم هذا الصبى درساً فى النظافة لاينساه . فوجدت انى كنت موفقاً فى هذا الدرس لدرجة أن باقى الاعضاء حفظوه فلم نعد نجد صعوبة من هذه الناحية بعد ذلك

لقد قلت ان هذه الحادثة تافهة ، وانها لكذلك حقاً من حيث مادتها وموضوعها ولكنها ليست تافهة من حيث دلالتها ونتائجها فهى تدلنا فى الواقع على أن جزءاً كبيراً من الصعوبات التى تعترضنا فى معالجتنا للصبيان راجع الى أمزجة المربين وقصور تصرفاتهم واتجاهاتهم الفكرية الملتوية . أنا لا أزعم أن كل المربين أو معظمهم على هذا الحال ، ولست أزعم أيضاً أنى براء من هذه النقائص لأن حكمى فى الواقع هو حكم معظمهم ، وانما أريد أن أقول أنه يجب ان نرجع الى نفوسنا قبل ان نرجع الى تصرفات الصغار عندما تعترض الصعوبات أغراضنا من التربية، يجب أن ننقب وراء تصرفاتنا وأمزجتنا وشعورنا عندما نقف وجها لوجه أمام الصبيان ، فليس يعقل ان ننتظر هذا منهم هم ونعفى أنفسنا مؤنة البحث والتحليل وأما ان لم نفعل هذا نكون قد قلبنا وضع الأشياء وحملنا الصغار مالا يحسن أن يتحملوا

ولكى نزيد هذه المسألة شرحا وبيانا وحتى نبين بمالا يدع مجالا للشك فى النتائج التى تترتب على تصرفات المربى الذى لا يدقق فى بحث أمثال هذه الحالات بحثاً دقيقاً بعيدا عن الأهواء والشهوات — أقول لكى نصل الى هذا الغرض دعنا نفترض بعض الفروض لنرى ماقد ينجم عن أمثال هذه الحالات. لنفرض أنى كنت ناظراً لمدرسة وليس سكرتيراً لهذا المعهد ، ولنفرض أيضا ان هذا الصبى طالب فى هذه المدرسة وأنه فعل نفس الشىء الذى نحن بصدده . فماذا كانت تكون النتيجة ؟

كانت تكون النتيجة على هذا الوجه : أنى أعتبر جملته التى قالها تحديا لسلطتى

أو على أقل تقدير أستخفافا بهذه السلطة . وشعورى هذا كان ينقل المسألة من أمر يتعلق بتصرف الطالب ذاته الى شيء متعلق بشخصى أنا كناظر مدرسة . وكنا ننسى الموضوع الأصلى المتعلق بنظافة المدرسة وبذوق الصبى، ننسى هذا لأننا قد أثرنا بتصرفاتنا بعض الشهوات الحادة والاهواء الشخصية البحتة . ثم نأخذ فى معالجة هذه ونترك الاولى من غير علاج ،ذلك لان الاهواء والشهوات تطغى فى جميع الحالات على المسائل العادية

عندما رجعت من أمريكا فى سنة ١٩٢٨ وجدت مذكرة من زميلى المستر هولكم الذى كان سكرتيراً لقسم الصبيان قبلى موجهة الى المساعد يقول له فيها مامعناه « يجب ان تتحرز من الشعور بأن تصرفات الصبيان موجهة الى شخصك . يجب ان تحترس من هذا بكل ماتملك من جهد لان تصرفاتهم فى معظم الحالات تكون موجهة الى الفعل فى ذاته وليست الى شخص المربى . فهم عندما يعصون أو يثورون يكون عصيانهم أو ثورتهم متجها الى العمل الذى ترغب اليهم ان يعملوه وليس الى شخصك أنت »

وفى الحق لست أجد اجمالا للموضوع أبلغ من هذا . ولست أطمع فى أن أترك للقارىء نصيحة غير هذه « انما ثورة الاطفال تكون فى معظم الحالات موجهة الى الفعل ذاته وليست الى شخص المربى » ومتى سار المربى على هذه القاعدة استطاع ان يخدم قضية التربية خدمة لها صداها فى حياة الاجيال المقبلة

الفصل السادس

تعجل الغايات

هنالك حالة أريد أن اشرك أرباب التربية فى درسها معى وارحب كثيراً بأى شعاع من نور يستطيعون ان يلقوه على هذه الحالة — أرحب كثيراً برأيهم عنها وأود لو يستطيع بعضهم أن يتصلوا بالمؤلف عن أى طريق لبحثها لانها شغلتنى كثيراً واستنفدت من وقتى الشيء الكثير ومع كل هـــذا لم نحلها وان كانت قد اندثرت معالمها مع الصبي الذى اثارها

ثم لست أرى فى الواقع تحت أى باب من أبواب هذا الكتاب كان يحسن بى ان ادمجها ، ذلك لأنها تدخل تحت ابواب متباينة ، وكنت أستطيع ان اتناولها بالبحث فى أى مكان من هذا الكتاب لا تناولتها هنا ، فهى حالة مشاعة بين الابواب لأن العواطف المتباينة تضاربت فيها من عصيان الى عناد الى كبرياء الى سوء تفاهم بين ذلك الصبي وبينى مع فارق واحد بينى وبينه — ذلك انه اساء فهمى أما انا فلم افهمه احياناً واكتشفت فى نواحى نفسه بعض العناصر التى تحتاج الى عـــلاج أحياناً اخرى

أما وقد مر على هذه الحالة ما يقرب من السنة والنصف فانى استطيع أن ارى الآن فى ضوء العقل المجرد عن الشهوات المناحى التى اؤاخذ نفسى عليها وبجمل تقصيرى كربى كان فى كونى تشددت حيث كان يجب أن لا اتشدد وعلى أى حال أظن انه من المستحسن الآن أن لا احاول لوم نفسى أو تبرئتها . وانما أورد الحالة كما حدثت واترك البحث والتنقيب للمشتغلين بأمور التربية من القراء

ولأن لهذه الناحية جانباً اقتصادياً يحسن أن نطلع القارىء على سياستنا فى هذا

الباب نوعا ما حتى يستبين فى تقديره ظروف تلك الحالة التى نحن بصددها . فراعاة لاحوال الاباء الاقتصادية جعلنا قيمة اشتراك الصبى فى معهدنا خمسين قرشاً فى السنة فقط . وبعد ذلك نفكر كثيراً ونتروى مراعاة لظروف الآباء عندما نضع انظمة تزيد فى الاعباء المالية الملقاة على عاتقهم . فتى عرض لنا مشروع ندرس ناحيته الاقتصادية بامعان وروية لنرى هل يستطيع الصبيان أن يساهموا فيه من مصروفهم الخاص من دون أن يرهقوا اباءهم بالمطالب . ثم نراعى ايضاً أن لاتجور هذه المشروعات على مصروف الصبيان الخاص فلا تشجعهم على الاقبال عليها بشكل يستنفد نقودهم الخاصة . والمشروعات التى نضطلع بها فى الواقع لا تعدو عن أن تكلف الصبى قروشاً قليلة لاتبلغ فى مجموعها العشرين فى السنة . وهذه بالطبع يتحملها الصبيان ويساهمون فيها من مالهم من غير رجوع الى عائلاتهم . والآن والقارىء يعلم بعض الشىء عن سياستنا هذه نروى له الحادثة الآتية

فى ذات يوم طلب صبى أن يحادثنى فى مكتبى فرحبت بهذه الفرصة بالطبع لأن الاخذ والعطاء مع الصبى والحديث فى مختلف الشؤون يزيد المربى علماً بنفسية الصبى — دعوته إذن الى مكتبى وجلسنا نتحدث فقال :

— نريد أن نلعب التنس يا يعقوب افندى ؟

— ماذا تعنى بقولك « نريد » وكم انتم ؟

— نحن خمسة . ش . ر . م . ل . وأنا

— انتم الخمسة إذن . ولماذا تريدون أن تلعبوا التنس وامامكم أنواع الالعاب الاخرى التى تفوقها من جميع الوجوه ؟

— نريد ذلك لأن اللعبة لذيذة

— اذن ادع اخوانك كلهم لنتحدث فى هذا الامر

ففعل وحضروا جميعاً . فقلت :

— بلغنى انكم تحبون أن تلعبوا التنس

— نعم

— ولكنى لارى هذا الرأى

— لماذا ؟

— لانى العب هذه اللعبة واعلم مبلغ ماتتكلف من النقود . انها تحتاج الى مضارب وكرات وأحذية وسراويل ولان طاقتكم المالية محدودة جداً لاتعدو بضعة قروش تأخذونها من ذويكم لتصرفوها فيما يتعلق بالمدرسة ، أنصحكم ان لاتفكروا فى هـــذا الأمر . أنا أرفض كل شىء يزيد فى اعباء اهليكم المالية . يجب أن تشعروا ببعض شعورهم فلا ترهقونهم بمطاليبكم التى تكاد لاتقف عند حد معلوم، رفقاً بآبائكم . وكفاهم ماهم فيه من مصروفات مدرسية وكتب وطعام ولباس وغير هذه مما تضغط طاقتهم الاقتصادية ضغطاً . الحق انى اعد التنس رياضة ترف وسعة وأود لو استطيع ان استعيض عنها بشىء ينفع بدنى ولا يكلفنى مثلما تتكلف هذه الرياضة

فقال واحد منهم ان عمه سيعطيه مضربا وهو سيتكفل بالباقى من مصروفه الخاص . وقال الآخرون أنهم يستطيعون ان يصرفوا على هذه اللعبة من نقودهم الخاصة . فشعرت انى عاجز عن ان افعل أكثر مما فعلت وان على الآباء ماتتق مما لم استطع ان أفعله ، فهم ان شاءوا منحوا صبيانهم مايطلبون وان ارادوا امتنعوا، وعلى ذلك لم أر لى وجها فى المعارضة الى النهاية . فقلت لهم

— انتم وما تريدون ، ولكن يجب ان تعلموا هذا : ان ملعب التنس خارج عن دائرة اختصاص قسم الصبيان وانه ملك لقسم الرجال ، ونحن مستقلون بشئوننا الداخلية عن هؤلاء . فاذا سعيت لانال لكم اذنا من مدير الجمعية الرياضى فسوف نضطر لأن نقبل شروطه التى سوف يفرضها علينا من تعيين للمواعيد والانظمة

الاخرى . وما يعطينا القسم الرياضى نأخذ ويجب ان لانطمع فى أكثر منه وهو بالطبع سيكون كريما معنا عاطفا علينا وفى نفس الوقت سيرعى مصالح قسمه الرياضى . فهل انتم قابلون ؟ فقالوا نعم نقبل وسوف نلزم الحدود التى يضعها لنا

ـــ اذن الى الملتقى . سأتحدث اليه وأفيدكم

ثم قابلته . وأطلعته على رغباتنا . ورجوته ان ينظر بعين التسامح إلى هذه الرغبات وان يعطينا أقصى مايستطيع ان يعطى ففعل على طيبة خاطر . ثم عدت اليهم وقلت :

ـــ قد صرح لكم المدير الرياضى ان تحتلوا ملعب التنس من الساعة كذا الى الساعة كذا يومى الاثنين والاربعاء من كل اسبوع . وأنظمة التنس التى تسرى فى قسم الرجال تسرى عليكم سواء بسواء من حيث محافظتكم على المواعيد وطريقة حجز الملعب وخلافه . فهل انتم راضون بهذا ؟ فقالوا نعم

اذن اتفقنا وأنامسرور لانكم نلتم مارغبتم فيه . وانما انصحكم ان لاتستخدموا الاولاد هنالك ليجمعوا لكم الكرات لأن قانون الجمعية يتطلب ان يدفع الواحد منكم قرشاً أو نصف قرش على أقل تقدير للصبى الذى يجمع لكم الكرات وانتم تلعبون . وأنا أشعر ان هذا كثير على جيوبكم . لابل هو ترف لايحسن بكم . فانصحكم ان تتعاونوا فيما بينكم حتى يخدم من لايلعب منكم اخوانه اللاعبين . تعاونوا على هذا وانقذوا قروشكم عن ان تضيع فى ترف انتم فى غنى عنه . فهل انتم فاعلون ؟ فقالوا نعم سوف نفعل

ثم انصرفوا

وفى ذات يوم نقر على باب مكتبى صبى منهم . وكان أكثرهم اعتناء بملبسه وخدمة لشعر رأسه وأوفرهم اهتماما بمظهره بالاجمال . وقد كان أيضاً أضعفهم جسما وأحوجهم للحركة والنشاط . استأذن هذا الصبى ثم قال

ـــ يايعقوب افندى . الحق اننا غير راضين عن نظام جمع الكرات هذا لأنه نظام سيء ، فلماذا لاتصرح لنا بأن نؤجر صبيان التينس ليجمعوها لنا كما يفعل أعضاء قسم الرجال ؟

ـــ قلت ولماذا لاتجمعونها انتم لانفسكم ؟

ـــ لان هذا متعب

ـــ أليس اللعب ذاته متعباً ؟ فعلى منطقك هذا يترتب ان لاتلعب التنس ابداً لأنه يتطلب منك مجهوداً بدنياً بينما انت تنشد الراحة

ـــ لا ـــ المجهود الذى ابذله فى التينس يعود على جسمى بالفائدة

ـــ وكذلك المجهود الذى تبذله فى التقاط الكرات

ـــ لكن المجهود الاول لذيذ

ـــ صدقت ، ان الامر لكذلك ولكن ماالداعى لان تؤجر صبيان التينس بينما انتم تستطيعون ان توفروا الأجر لنفوسكم

ـــ نحن لايهمنا الأجر لاننا نستطيع ان ندفعه ونحب ان نفعل ذلك

ـــ أما أبوك وأنا فانه يهمنا ان لاتصرف فى هذا الباب

ـــ ولكن هذه نقودنا الخاصة ونحن احرار فيها

ـــ ولكن خصلة الاقتصاد خصله ضرورية ونحب أن تعتادوها

ـــ لا نريد أن نقتصد فى هذا ؟ لأن هذا الضرب من الاقتصاد مزر بالانسان

ـــ كيف ذلك ؟

ـــ ذلك لأن جمع الكرات من عمل الخدم ونحن لسنا خدما فقد هبطنا من بيوتات طيبة

ـــ انا لا يعجبنى هذا المنحى من التفكير لانك لا تخدم فى هذا سوى نفسك واخوانك وسوف يخدمك اخوانك بدورهم ، ومع ذلك فقد مكثت ثلاث سنين

فى امريكا العب فيها التنس مع اللاعبين ولم ار فيما رأيت ان الصبيان يؤجرون ليلتقطوا الكرات ويقدموها للاعبين . وانما اللاعبون انفسهم هم الذين يفعلون هذا كيف تكون خدمة الانسان لنفسه مزرية بكبريائه ومنتقصة قدره ؟ أوصلت بك الدرجة لان تستنكف من أن تخدم نفسك بنفسك ؟

— نحن جميعا لا نحب هذا العمل على أى حال ونرى أن ارغامنا على أن نجمع الكرات بانفسنا تعسف لامبرر له

— ليس هو تعسفا يابنى وانما هو لفائدتكم الخاصة من كل الوجوه وقد ذكرت لكم بعضها . فيحسن بكم أن تقدروا نصيحتى وتعملوا بها

وهنا يحسن بى أن انوه عن سبب مهم جعلنى اسلك هذا المسلك . وبالطبع لم اذكر هذا السبب فيما ذكرت من الاسباب للصبيان . ولم اذكره لعلمى أنه لايمكن أن يكون سببا مهما فى نظرهم والحال انه من أهم ما حفزنى الى اتخاذ هذا الطريق وسلوكى معهم هذا المسلك . واليك التفصيل :

الالعاب الرياضية من أهم العوامل فى انماء الخصائص الاجتماعية فى الصبى لاننا فى الواقع لا نرى شيئا يعدلها أو يقرب منها فى هذه الظاهرة . فالصبى الذى تعلم أن يلعب مع رفقائه ويتحمل جزءاً من الهزيمة التى تلحق بجماعته بروح رياضية ويفخر بانتصار فريقه بقدر معقول من الفخر ويستميت فى الدفاع عنه فى اثناء اللعب ويتعاون مع رفقائه بجسمه وعقله وقلبه من غير اضطرار خارجى بل بدافع نفسانى محض . هذا الصبى لا يبنى جسمه بهذا العمل فحسب ولكنه ايضا يبنى اخلاقه ويكونها ويضع لها الاسس الثابتة المتينة . وليس هذا فقط ولكنه يظل يجمع لنفسه العناصر المكونة للشخصية من نزوع الى القيادة والزعامة ومن توفير البيئة اللازمة لهذه الشخصية ايضا . فالالعاب فى مجموعها من العوامل التى تبنى الجسم المادى والتى توفر العناصر اللازمة لتكوين الشخصيات

وبالطبع نحن ندخل فى باب الالعاب جميع أنواع النشاط الحر free activities الذى يقبل عليه الصبى بدافع الرغبة واللذة ويساهم فيه إذا ما ترك لنفسه من غير ضغط خارج عن نفسه. وعلى هذا فاى مشروع يضطلع به الصبيان من انفسهم وبدافع ذاتى مهما كان لون هذا المشروع فهو نشاط حر أو لعب، فالمدرسة التى ينشئها الاطفال ويقيمون عليها ناظراً ومعلمين ويضمون اليها طلبة وينشئون لها مناهج ويحفظون لهـــا دروساً — كل هذه الامور إذا تمت على أى شكل من الاشكال تدخل فى باب اللعب إذا كان الاطفال هم القائمون بها بدافع من انفسهم ومن غير أن يكونوا مدفوعين اليها بارادة خارجة عنهم، وعلى هذا القياس نقول أن أى شىء يحمل عليه الصبيان حملا لا يعد من باب اللعب فى شىء حتى وأن كان هذا الشىء مثل كرة القدم متى فكرت فيها المدرسة واضطرت الصبيان لأن يساهموا فيها على انها شىء الزامى أو جزء من المنهج المدرسى

أنا لا أدعو الى ترك كرة القدم أو حذفها من المدارس لانها ليست لعبا بالمعنى الذى نقصده من هذه اللفظة. وانما كل ما أرمى اليه هو ان أحدد المعنى المقصود من هذا الاصطلاح وأميز بين اللعب الصحيح والعمل. ومن هذا أيضاً يتبين ان الشىء الواحد قد يكون لعبا عند بعض الناس وعملا عند بعض الناس الآخرين، لا بل نستطيع ان نقول ان الشىء الواحد قد يمكن ان يكون لعبا فى بعض الظروف وعملا فى بعض الظروف الاخرى عند الشخص الواحد. ومن هنا نرى ان الانسان السعيد حقاً هو من تهيأت له الظروف بحيث يستطيع أن يجمع بين مهنته وهواياته أو لعبه أو على الاقل أن يقارب بينهما

نقول ان اللعب من أهم العوامل فى بناء الاخلاق فى حياة الصغار ذلك لانه يستدعى منهم ان يستعملوا غرائزهم الاجتماعية وهم يلعبون. يتطلب منهم بعض عناصر النفس الاجتماعية التى لا تجد لها مجالا للظهور فى غير اللعب. ولسنا

متعسفين أو ميالين للاطلاق والتعميم عندما نزعم ان الاخلاق هي ظاهرة اجتماعية لا غير . أو هي تقوم على العلاقة بين الافراد وبعضهم أولا وبينهم وبين الجماعة ثانيا كما فصلنا في كتابنا السابق (التربية والاخلاق) من هذا نرى ان أثر اللعب في تكوين الاخلاق والشخصيات اثر لا ينكر ولا ينتقص من شأنه

والالعاب نوعان — نوع شخصي كالسباحة وجمع طوابع البريد وأنواع التجارة والتمارين الرياضية الفردية ، ونوع آخر اجتماعي (Group games) يتطلب ان تتعاون جماعة من الجماعات على القيام به . والاول منهما مفيد للجسم فائدة مؤكدة وهو رياضة للعقل أيضاً في بعض الحالات وقد يكون له أثر في تربية الفرد الاخلاقية في بعض الاحيان الاخرى . فليس يستطيع انسان ان ينكر أثر الهواة Hobby في أخلاق الافراد

اما الالعاب الاجتماعية فهي خير الالعاب على الاطلاق وخصوصاً للصغار اليافعين ، لان هؤلاء الصغار لا يزالون في دور التكوين حيث تكون الغرائز الفردية — غرائز حب النفس على اختلاف مظاهرها وتعدد أشكالها — محتلة المكان الارفع من حياة الصبي ، ففي هذا الدور يهتم الطفل أول ما يهتم وقبل كل شيء بما له علاقة مباشرة بشخصه وذاته ، يهتم لان يتعهد ميوله ومزاجه واهوائه ونزعاته ويحاول ان يشبع هذه جميعا ويعينها للوصول الى ماتبغي وتشتهي

في هذا الدور اذن يجدر بالمربي أن يعين النواحي الاجتماعية من الطفل لتجد لها مجالا تنشط فيه أيضاً ، يجب ان يحرص حتى يقدم له الفرص ويوجده في البيئات الخاصة التي تستفز من نفسه النواحي الاجتماعية ايضاً . وكل مرب لا يحرص على ان يعين هذه النواحي النفسية لا يمكن ان يكون قد ادى مهمته خير اداء ، يجب توكيد هذه النواحي الاجتماعية من نفسية الصبي لانها هي التي تحتاج الى التوكيد والالحاح عليها بالمعاونة والمساعدة ، ذلك لأن النواحي النفسية الذاتية اقرب الى

شعور الصبي وعواطفه من غيرها . وعلى هذا فهي تستطيع ان تطغى من تلقاء نفسها إذا ماتركت وشأنها . فيصير الصبي ممعنا فى الفردية البغيضة الممقوتة ويعجز عن ان يحتل مكانا ملائما فى حياة جماعته ونظامها لهذا دون غيره

ومتى استطاع المربى ان يجعل الصبي يقبل برغبة وشوق على خدمة الجماعة التى ينتمى اليها حبا فى الخدمة نفسها وفى الجماعة ذاتها فقد نجح الى حد بعيد فى تكوين شخصية تتوافر لها عناصر النجاح المادى والاجتماعى والاخلاقى ايضاً — ذلك لأن القائد بجيشه والزعيم باتباعه والحاكم بمن يحكم : ولن يمكن ان يكون قائدا او زعيما او حاكما من لايتصل بالجماعة التى ينتمى اليها ويرتبط معها بأوثق الربط ويؤسس علاقته بها على امتن الأسس

فاذا سلمنا بما تقدم فنحن إذن وجها لوجه امام السبب المهم الذى حدا بى لأن أتشدد مع هذا الصبي الذى أوردت قصته فيما سبق . نحن اذن امام السبب الذى لم أذكره له لعلمى انه لاوزن له فى نظام تقديره للاشياء . قد يجوز انى أخطأت فى عدم ذكره له . قد يجوز ذلك ولكنى لم أذكره على أى حال

ذلك السبب هو أنى كنت أطمع فى أن أدفع بهؤلاء الخمسة الصبيان على أن يتناوبوا خدمة بعضهم البعض بجمع كرات التنس . ولذلك تشددت جداً فى هذا الامر ولم اصرح لهم بأن يؤجروا صبى التنس ليخدمهم . والآن بعد مرور هذا الزمن الطويل على هذه الحادثة أشعر أنى اخطأت فى تشددى وتمسكى بوجهة نظرى الى النهاية . أخطأت فى هذا لأنى كنت أستطيع ان ألين امام تشبثهم واغض الطرف عن هذه الفرصة انتظاراً لفرصة اخرى وهى لابد سانحة اعلمهم فيها هذا الدرس الذى كنت أحرص على أن اعلمهم أياه فى ذاك الظرف . حقا أنهم نزلوا على رأيى وخضعوا فى آخر الامر لما اردت منهم ولكنهم خضعوا خضوع المضطر الذى عجز عن ان يفعل امرا آخر . جمعوا الكرات وخدموا بعضهم البعض لأنى

كنت املك الوسائل المادية التى استطيع ان احملهم على ان يفعلوا ماطلبت

انتهت حكايتنا عند هذا الحد وان كان لها ذيل لذيذ احب ان اورده تفكهة للقراء . وهو عبارة عن حوار يستبين منه منطق الصبيان وعقليتهم التى تحتاج الى التمرس والاطلاع حتى تنمو وتصل الى مداها المقدر لها فى سجل الزمان : هو حوار منطق يستقيم فى نظر الصبي لانه يوافق هواه ليس لانه يتجرد عن الاهواء ككل منطق سليم

قال — الصبي وما العمل الآن ؟

قلت — ليس شيء سوى ان توطنوا نفوسكم على ان تتبادلوا المعاونة

— لكن الصبيان جميعهم غير مرتاحين لهذا الحل ولا يحبون ان يقبلوه

— أنتم وشأنكم

— لكن يايعقوب افندى الم تصرح امامنا مراراً وتكراراً ان الحكم فى هذا القسم للديموقراطية وان الرأى للكثرة ؟ نحن الآن كثرة وانت فرد فيجب ان تخضع لحكم الأغلبية

قلت — هذا منطق لايستقيم لأن للديموقراطية حدوداً فى جميع الحالات ، وحدودها هنا هى أغراضنا من ايجاد هـــذا القسم . فكل مايتعارض مع هذه الأغراض لايؤبه له ولا يقام له وزن بغض النظر عن رأى الأغلبية والاقلية ، وبمعنى آخر سياسة هذا القسم فى يد لجنة ادارته وما تسمح لكم به لجنة الادارة فمن حقكم انتم ان تسيروا فيه بالنظم الديموقراطية لانها أفضل النظم حسب مانرى

قال — لست أرى هذا الرأى وانما أرى اننا اختلفنا — انا واخواني فى جانب وانت وحدك فى جانب آخر . والنظم الديموقراطية تتطلب التحكيم فيحسن بنا جميعاً نحن وانت ان نحكم بيننا فلان افندى

قلت — هذا منطق معكوس ليس له معنى إلا انك تطلب تغيير سكرتير القسم فهل تقصد إلى هذا ؟

— كلا لاأقصد هذا أو شيئاً يقرب منه ، ولكن كيف يفهم هذا من كلامى ؟

— قلت إذا كنتم تسيرون على هذا الزعم فكأنكم تضعونى موضع الخصم وتبحثون عن حكم يفصل فى الخصومة . وليست هذه أول مرة نختلف فيها ولن تكون آخر مرة . فكانك تطلب مديراً آخر غيرى قريباً منا ليسوى لنا خصوماتنا ، لأن هذا الحكم الذى ارتضيه يصير فى آخر الأمر المسئول الوحيد عن سياسة قسم الصبيان ، هذا اذا حكمناه هو فى كل مرة ، وأما اذا جعلنا لكل حادثة حكما خاصاً فقد ارتضيت ان اتنازل عن الاضطلاع بمسئولية هذا المعهد وجعلت هذه المسئولية نهبا مشاعا لكل عابر سبيل

— اذن ماالعمل الآن ؟

— لاشىء سوى ان تخضع أو تترك لعبة التنس لشأنها

— خرج هذا الصبى من مكتبى غير مقتنع وشعرت انا انه كان يحسن بى ان لاأتشدد فى هذا الظرف . كل هذه مشاعر قد تكون مخطئة وقد تكون مصيبة تبع وجهات النظر المختلفة ولكنى موقن من شىء واحد وهو انى عصرت دماغى وبذلت أقصى ماستطيع من همة حتى نعود المياه الى مجاريها بينى وبين هذا الصبى وحتى أجعله يشعر انى لم اتعسف أولا وانى لم اتشدد الاحبا فى خيرهم ثانيا. لست أقصد من هذا انى عدت الى محادثته فى هذا الأمر مرة أخرى . كلا فان شيئاً من هذا لم يكن . لابل لاأذكر ان حديثاً من هذا القبيل دار فى هذا الموضوع بالمرة ، وانما قصدت ان اقول انى أظهرت له كل شعور حسن وأوليته كل عطفى وقدمت له كل المساعدات الممكنة فى ظروف كثيرة

ومع انى استطعت ان انال ثقته المطلقة فى اغراضى ونياتى نحوه فانى لازلت اعتقد بأنه لم يكن يحسن بى التشدد فى هذا الظرف بعينه ليس لأن ايمانى بالاغراض التى وضعتها أمامى قد تزعزع قيد شعرة . كلا . فانى مازلت اعتقد بأن تلك الاغراض لاغبار عليها . وانما كل ماأؤاخذ نفسى عليه هو السبيل التى سلكتها الى تلك الاغراض

الفصل السابع

عصيان مجهول السبب الأصلى

لقد سبق ونوهت بان قسم الصبيان يحاول ان يستغل أوقات الفراغ لصالح الصبيان . ووسائله لذلك لذيذة ومقبولة من الصبيان أنفسهم . الحق أنها لذيذة ومقبولة بدرجة أنها قد تغريهم بالوقت فيضيعوه من غير حساب ، ولكننا لا نجهل مثل هذه التجربة فلا نمكنهم من ذلك . لاننا نعتقد ان من متممات الاخلاق أن يؤدى الصبيان ماعليهم من الواجبات للمدرسة وللبيت حق أدائها . ولهذا نتصل بولى أمر الصبي عند التحاقه بالقسم ونستشيره فى مقدار الوقت الذى يظن أن ابنه يستطيع تمضيته تحت ارشادنا . وكثير من الاباء الذين يعرفوننا ويثقون بنياتنا ووسائلنا وأغراضنا يتركون هذا التقدير لنا لنرى رأينا فيه

واتفق ان أنضم للقسم صبي وأخوه واتفق أبوهما معى على ان أصرح لهما بأن يقضيا ساعة كل يوم فى معهدنا بعدها يذهبان الى البيت ليذاكرا دروسهما ، وقد كان ودرجنا على هذا الاتفاق حينا من الدهر

وفى أحد الايام بعد ان قضيا ساعتهما أراد الاكبر أن يذهب الى البيت ليدرس واعترض الاصغر على ذلك العزم . واختلفا فى ذلك وجد بهما الخلاف فلما لم يستطيعا الى تسويته سبيلا تقدما الى به لأحله . فاستغربت لهذا الخلاف يجد بينهما وهما لم يشجر بينهما خلاف من وقت ان انضما الينا . فطلبت الى الاصغر — وكان لم يتجاوز الحادية عشرة — ان يذهب الى البيت مع أخيه الاكبر كعادته فرفض . عجبت لهذا التصرف الذى لم أكن أدرى الدافع له واليك مادار بينى وبينه من الحوار

— اذهب يابنى الى البيت مع أخيك الاكبر

— كلا ، لا أريد ان أذهب الآن

— ولماذا ؟

— لانى أريد أن العب قليلا وما زال عندى متسع من الوقت لذلك فلماذا لا أفعل ؟

— ووالدك ، الا يعترض على ذلك ؟ الا يغضب منك إذ يرى أخاك عائداً وأنت باقياً ؟

— كلا والدى لا يغضب منى مادام يعلم انى هنا وفى هذا المكان

— والدروس ؟ الا يحسن أن ترجع لتستعد لدروسك غداً ؟

— كلا ليس لدى دروس استعد فيها (واغلب الظن أن الصبي صادق فى ذلك لأنه كان فى السنة الاولى الابتدائية)

— ولكنى اظن أن والدك يرغب فى ان ترجع الآن الى البيت

— كلا ، سيان عند ابى أن ارجع الآن أو بعد الآن

— ومن ادرانى بذلك ؟

— أنا عارف

— اذهب يا بنى الى بيتك

— كلا . لا اذهب الآن

وجدت نفسى فى هذه الحالة فى مركز حرج ، الصبي يعصانى عصيانا صريحاً ، وليس امامى الا سبيلان لا مندوحة عن سلوك احداهما . فاما انى اتركه ليبقى الى أن تغلق أبواب القسم حوالى الساعة السابعة مساء ، وفى هذا غضاضة على نفس المربى كما لا يخفى . فليس أصعب على نفس الاستاذ من أن يقبل امراً كهذا ، إذ له نتائج سيئة تترتب عليه خصوصاً متى علم القارىء أن بقسم الصبيان ما يقرب من الثمانين صبياً فلو ترك أحدهم وشأنه أو لو وقر فى ذهن الصبيان أن لهم أن يفعلوا

ما يشاءون لما تبقى لنا سبيل الى تقويم أخلاقهم . فالتمرد والعصيان أقرب اليهم وأسهل عليهم من أى شيء آخر خصوصاً متى شعروا بضعف المربى

أما من جهة الغضاضة التى يشعربها المربى وأما من جهة كرامته المزعومة فليس يجب أن يجعل لهما المكان الاول من حسابه . فكرامته وعزة نفسه هراء بجانب اخلاق الصبيان . وكثيراً ما تكون كرامته وعزة نفسه على حساب كرامتهم وعزة نفوسهم . وعلى هذا فليس للكرامة دخل فى هذه الحالة بالذات . ومن هذه الوجهة يستطيع الصبى أن يبقى إذا لم يكن ثمة عوامل أخرى فى الموضوع

والعوامل الاخرى هى هذه — أولا ليس من الامور المأمونة العواقب أن يذهب هذا الصبى الى البيت بمفرده يحسن أن يكون بصحبة اخيه الاكبر . وثانيا يجب أن يرجع الى البيت مبكراً متى كان أبوه يريد ذلك ومتى كانت دروسه تتطلب هذه العوده

وبما اننى لم اكن ادرى رغبة والده بهذا الخصوص فقد صار من اللازم أن اسلك السبيل الثانية ولكن قبل ان افعل ذلك يجب ان أفهم الدافع الحقيقى الذى حدا بهذا الصبى لأن يعصانى وذلك كما قلت سابقا لخير الصبى نفسه ليس غير فليس من خيره ان اجعله كالآلة آمر فيطيع من غير تردد . بل يجب ان تكون اعماله صادرة عن اقتناع ورضى ، واذن يجب ان افهم الدوافع الحقيقية لتصرفه

ولاتظن ان كل هذه الافكار خطرت ببالى فى لحظة كلا ، فلست من الملهمين والواقع انى لما أشكل على الامر اعطيت نفسى فرصة للتفكير وذلك بأن طلبت الى الصبى ان يفكر فى الموضوع وقلت له انى سافكر فيه أيضا وسوف ادعوه للحديث بعد ربع ساعة

ولما انقضت ربع الساعة دعوته الى مكتبى ، وبدأت الحديث معه ، وما كان اشد اندهاشى اذ وجدته يكرر نفس اقواله السابقة . ففهمت ان وراء هذا التصرف دافعاً

خفى على الصبى نفسه ، او قد يكون ان هذا الدافع قد اختفى وراء رغبة او شىء غير الرغبة ، وأن تلك الرغبة او ذلك الشىء قد تملك الصبى بشكل لم يعد معه يميز أهو باق لأنه يرغب فى ذلك أم لأنه يقاوم فكرة معينة او انسانا معلوماً

واختلاط الدوافع هذا أمر مقرر فى علم النفس وقد كتب عنـــه شىء كثير . فليس هو إذن أوهاما او شبه اوهام بل هو حقيقة واقعة ويسميه علماء النفس فى لغتهم (Rationalization) كما يسميه الأمريكان أو Racionation كما يدعو برتراند رسل (Bertrand Russell) والانجليز غالبا

ومحصل هذه النظرية ان العقل يفقد قوة نفاذه الى خفايا الامور واسرارها متى كان ثمة فى زاوية من زوايا النفس رغبة او شهوة او عاطفة كامنة بشكل من الاشكال ، فالناس يكرهون اليهود أولا لسبب من الاسباب ثم يبررون هذا الكره بالعقل والمنطق او بغير العقل والمنطق . فالكراهية تأتى اولا والسبب الظاهر لهذه الكراهية يأتى أخيرا ، فليكن أننا نكره اليهود اولا ، ثم ليكن السبب الظاهرى لذلك قتلهم للمسيح عند المسيحيين ، او ممارستهم للربى عند غير المسيحين ، فالاصل فيهم اذن الكراهية ، وبعد ذلك يسعى العقل لتبرير الكراهية

وعملية التبرير هذه (Rationalization) عملية غير واعية أى أنها تحدث فى اللاوعى (Uconscious) وعلى هذا فنى معظم الاحوال يخفى السبب الحقيقى عن الانسان ولا يبقى إلا السبب الظاهرى الذى لا يصح ان يكون سببا فى الحق والواقع وهكذا تسرب الى الشك فى الدافع الحقيقى الذى حدا بهذا الصبى لان يعصى ويقاوم ويتذمر للذهاب الى منزله فى مثل هذه الساعة ، ومتى كان ثمة سبب حقيقى لهذا العصيان فمن خير الصبى المحقق ان أكشف عنه لارى اذا كان حقا يبرر عصيانه فاسمح له ان يعصى ، يجب ان اعرف الدافع الحقيقى وازيله قبل ان استطيع ازالة ماترتب عليـــه من النتائج

والوسائل لمعرفة مثل هذه الحالات النفسية معروفة . فيمكن الكشف عنها بطريقة التحليل النفسانى Psychoanalysis وهى عملية صعبة شاقة تستنفد جهوداً كثيرة وتستغرق وقتاً طويلا . ولكن كثرة الجهود لاتروعنى وطول الوقت لايدخل فى حسابى متى كان تقويم اخلاق صبى واحد يتطلب مثل هذه الجهود وذلك الزمن

وأول شرط للتحليل النفسانى هو ان يثق الانسان (The Subject) بمن يعالجه : واذن يتحتم على ان أهدىء ثورة العواطف فى نفس الصبى الى ان يعود الى حالته الطبيعية وبعد ذلك أسير معه على طريقة التحليل النفسانى — وهى ان ادعه يتكلم واغريه بالتكلم وأمهد له السبيل اليه وافتح له أبوابه ومسالكه فيقول مايعن له

وبعد حديث طويل لاداعى لايراده هنا القى الصبى جملة لم يكن يدرى بأهميتها فى الموضوع . والحقيقة انها هى علة العلل وبيت الداء وأصل جميع مانحن فيه من تلك الحالة المعينة . قال الصبى (طيب وهو ماله — عاوزنى أروح دلوقت ليه)

(طيب وهو ماله — عاوزنى أروح دلوقت ليه) — هذه هى الجملة التى كشفت لى عن أصل العلة وبيت الداء . لقد صارت المسألة كلها واضحة أمامى وانحلت عقدتها واستطيع اذن أن أعالج الصبى بما يساعده على معضلاته التى قد تضر باخلاقه كثيراً ، وان كانت عوامل هذه الحالة تغيب عن فطنته

أظنه قد وضح الآن للقارىء ان المسألة على وضعها الصحيح يجب ان تكون هكذا . لقد طلب الأكبر الى الأصغر — أو أمره ان شئت — ان يصحبه الى البيت لأن الأول منهما يريد ان يذاكر دروسه . ولهذا السبب ثارت ثورة الاخ الاصغر ، ووقر فى نفسه — ان خطأ وان صواباً أنه يريد أن يتحكم فيه . وعلى هذا ثارت عاطفته ، وتملكته وتحكمت فى كل مشاعره فاعمته عن كل شىء آخر عدا أنه يريد ان يثبت لنفسه وجوداً بجانب اخيه الاكبر ، والسبيل لاثبات وجوده هو أن يبقى حيث يريد اخوه على ان يذهب . والبقاء فى نفسه — علاوة على ذلك — مرغوب فيه عنده فهو إذن يريد ان يبقى

ليلعب ويلهو . وتملكته هذه الرغبة القوية فى ذاتها بشكل انساه الموضوع الاصلى أى اعتداء اخيه المزعوم . تداخلت عواطفه فى بعضها البعض وتعقدت وارتبكت حتى صار يعجز عن تمييزها ، وصار لا يدرى لماذا يريد ان يبقى على أى حال ، وعند هذه النقطة وصلتنى حالته . فكان من واجبى أن احلل الحالة الى عواملها الاولية حتى اساعده فى حل معضلاته

وإذن فقد اكتشفت ان الصبى يعصى حقاً وأنه فى سبيل ذلك قد عصانى أنا ايضاً . ولكنه فى الواقع معذور فى ذلك فقد تجمعت عليه عوامل كثيرة ليس له بها قبل ، ولو عوقب فى هذه الحالة بأى عقاب مما أملك لما افاده ذلك شيئاً فى حل معضلاته ثم يكون فى ذلك ظلم بغيض يحيق به . وليس للظلم الا أن يفعل أحد امرين . فاما أنه يدفع المظلوم الى الثورة والتمرد والعصيان ، أو انه يقتل فيه عزة النفس ويميت فيه المروءة والشجاعة . وهذا ما يتعرض له الصبيان كثيراً بسبب عدم تبصر الآباء والمربين وهذه فى الواقع احدى العلل التى تعمل فى هدم الاخلاق فى الصبيان

والآن نعود الى تتمة الحديث بعد أن كشفت عن البواعث النفسية لهذا العصيان — تلك البواعث التى خفيت فى الواقع عن مدارك الصبى ذاته

— قلت — هو إذن يتحكم فيك ؟

— دائماً يا افندى

— وكيف ذلك ؟ أتستطيع ان تسرد لى بعض احواله معك ؟

— نعم . هو يريدنى على ان ارجع للبيت حين اريد ان ابقى ، ويبقى عندما اريد أن اذهب

— لم اعرف شيئاً عن هذا . ولكن إذا كان يفعل ذلك حقاً فهو ملوم

— نعم يفعله

— أتريدنى ان انقذك من هذه الحالة وارد لك استقلالك ؟

— اشكرك أن فعلت

— هل أنت متأكد ان اباك لا يمانع فى بقائك هنا الى الساعة السابعة مساء ؟

— نعم متأكد

— هل تستطيع أن تأتينى بالبرهان على ذلك غداً ؟

— كيف ؟

— بأن تأتينى بخطاب من والدك يقول لى فيه بأن لا مانع عنده من بقائك الى أن نغلق أبواب قسم الصبيان فى الساعة السابعة

— استطيع ذلك وسأفعله

— وانا استطيع أن احميك من أخيك وارد عنك اعتدائه وتحكمه فيك

فضحك وسر من ذلك وقال « يبقى كتر خيرك »

فقلت — والآن ماذا أنت فاعل ؟

— كما تريد

— اذهب الى البيت مبكراً الليلة وأتنى بالورقة غداً وعندئذ تنتهى مأموريتك

— حاضر — ليلتك سعيدة

وذهب الى البيت فى الحال وانتهى الاشكال . وفى اليوم التالى احضر التصريح من والده بأن له أن يبقى كيف يشاء . وقمت انا بتعهدى من ناحيتى فلم يتعرض له اخوه مطلقا ، واغرب ما يكون أنه بعد أن استمتع بحريته اسبوعا أو ما يقرب من الاسبوع صار يذهب الى البيت من تلقاء نفسه عندما يرى أن اخاه هم بذلك

الفصل الثامن

ضبط النفس وسيلة فعالة فى التربية

الحق ان الطاعة من الأمور التى يلذ للانسان دراستها واستخراج العبر الكثيرة منها . فهى منشأ كثير من العقبات فى سبيل حسن التفاهم بين الآباء والابناء وبين المربين ومن هم فى عهدتهم من النشء الصغير ، يلذ للانسان دراسة هذه الظاهرة ويسهل عليه ذلك لأن المادة فيها كثيرة لاتفرغ

فنى كثير من الاحيان وجدت ان العصيان ينشأ فى الواقع من سوء التفاهم بين المربى وتلميذه قبل ان ينشأ من أى شىء آخر ، لسنا ننكر ان هناك عوامل كثيرة تتسبب فى العصيان ولكن نريد ان نقول ان عدم التفاهم التام بين الصبى وأبيه ينتج عصيانا فى كثير من الحالات

لقد اعترضت قسم الصبيان فى مفتتح حياته صعوبة كاد فهمنا لعواملها يقضى عليها ، ولكن هذه الصعوبة اقضت من مضاجعنا فى طور معهدنا الاول ، نعم ان لها بقايا وان لها اثاراً وخصوصا مع الصبيان الحديثى العهد بهذا القسم ، وحتى مع هؤلاء أخذت تلك الصعوبة تتخذل وتفقد حدتها وأخذت السبل تمهد أمامنا نوعا ماخصوصاً بعد ان يتمرس العضو قليلا فى المعهد و يتدرب على نظاماته ويفقه الدوافع لتلك الانظمة : تلك الصعوبة تنجم عن رغبتنا فى ان كل صبى يلعب العابا قوية يجب عليه ان يستنقع بالماء البارد بعد اللعب

مسألة الاستنقاع هذه (الدوش) من مستلزمات الرياضة الصحيحة المؤسسة على المبادىء الصحية القويمة ، ونحن نتبع فيها نصائح طبيب الجمعية الخاص ورأى مديرها الرياضى : وبمعنى آخر نحن نوقن ان الحدس والتخمين فى المسائل الصحية

خطر ومجازفة لايحسن بمن له مسكة من العقل ان يرتكبه ، فللأمور الصحية اخصائيوها وأربابها ، ونحن لسنا من هؤلاء ولا نمت لهم ، ولذلك فانا اتحرز فى معاملاتى مع الصبيان من ان انصح بشىء له علاقة بابدانهم وصحتهم وكل ماأفعل هو ان استنير برأى الدكتور ثم أحاول اتباع ارشاداته : فمن جهتنا اذن نحن واثقون مما نفعل فى هذه الناحية

ولكن هنالك عاملا خارجا عن ارادتنا يعقد المسائل ويزيد فى تبعاتنا ويعطل البرامج النافعة التى نأخذ بها لمنفعة الصبيان من غير ادنى فائدة للصبيان انفسهم ذلك العامل هو بعض الاباء والامهات فى هذا البلد

الحق ان الآباء والامهات فى هذا البلد يتصرفون كأنهم اخصائيون فى الطب والتربية والاجتماع والاخلاق وفى غير هذه الامور التى قد لانعدو الصواب ان قلنا ان فى كل البلاد المصرية لايوجد اخصائيون فيها الا النزر اليسير فيما عدا الطب : يتصرف الآباء على زعم انهم يعرفون بشكل قاطع مايفيد ابنائهم وما يضر: ثم انهم لايقبلون شيئاً يتعارض مع مااستقر فى عقولهم من هذه الآراء حتى انك لتصرف وقتاً طويلا وجهداً كبيراً فى افهامهم انه يجدر بهم ان يتركوا هذه الامور لاربابها ويثقوا بهؤلاء ، وقد يكون الوقت الذى صرفت والجهد الذى بذلت ضائعين؛ لابل نستطيع ان نوقن انهما ضائعان ؛ وانه يحسن بك ان تتأكد مما انت فاعل ثم تفعله على عهدتك ان استطعت الى ذلك سبيلا : حقا ان بعض الآباء مستنيرون يعرفون حدودهم فيطلقون يدنا فيما نحب ان نصنع بأطفالهم ؛ وحقاً ان منهم من يشرف مكتبى ويصرح لى بهذا ويعرب لى عن ثقته فيما نحن صانعون ـ نقول مع ان بعضهم يفعلون هذا صادقين مخلصين الا ان امثال هؤلاء قليل وأقل من القليل يعدون على أصابع اليد الواحدة ـ واما الغالبية العظمى منهم فيحبون ان ينصحوا لطبيب الجمعية بما يفعل ويرشدوا سكرتير قسم الصبيان فيما يصنع

وأغلب الظن أن الآباء فيما يفعلون مكلفون من زوجاتهم مضطرون . لا بل هذا هو الواقع بالفعل لأن الام تتبع نظاما خاصاً لوقاية ابنها من الامراض وهذا النظام مضحك لأنه مبنى على مزاعم فاسدة وخرافات شائعة ، فاذا انتاب الصبي زكام يجب ان يتدثر ويثقل ملابسه من داخلية وخارجية ويجب أن لايقرب الماء البارد وقد يكون كل ذلك فى أشهر القيظ أى فى يوليو وأغسطس اللذين يكادان أن يزهقا أرواحنا بحرهما الشديد . وليس من النادر أن ترى صبيا فى هذا الظرف متدثراً متزملا كأنه يعيش فى القطب الشمالى أو فى أسوج . تفعل الأم هذا متبعة فيه منطقاً بسيطا ولو أنه مغلوط ، منطقا له مقدمات ونتائج ولكن نتائجه غير مبنية على مقدماته . فالبرد فى عرف الام عكس الدفء ، ومتى أردت أن تقضى عليه لايكون ذلك بغير الدفء . والدفء يلزمه التدثر والتزمل بالملابس الكثيرة من صوف وقطن . هذا منطق بسيط ، ولكن هل هو مستقيم ؟ ذلك بالضبط مالا تتكلف الام ببحثه

وبناء على هذا يقبل الاب والأم من ابنهما ان يساهم معنا فى العابنا من سهلة خفيفة وقوية عنيفة . يقبلان هذا . أما الاستنقاع بالماء وأما تغيير الملابس عند اللعب فلا . لان هذا يسبب البرد والزكام للصبى . تقبل الام أن يلعب ابنها بكل ملابسه وهى مركبة من قطع لا عدد لها . وتقبل ان يعرق الى ان تكاد تملأ وعا كبيراً اذا عصرت ملابسه . ثم تقبل ان يخرج الى عرض الطريق وملابسه مبللة على هذا الحال — كل ذلك حتى لايتعرض ابنها للبرد والزكام — ثم هى واثقة أن نظاما مثل هذا لايعرضه لهذين العارضين وعبثاً تحاول اقناعها بخطأها لانها تعرف بما لا يدع مجالا للشك أن البرد يلزمه الدفء وأن الدفء يلزمه كثرة الملابس

أما من جهتنا فنحن نعلم أن الملابس المبللة تعرض صاحبها للامراض الصدرية ونعرف أيضا أننا ملزمون ان نقاوم هذا النظام الذى تضعه الام وان تقاومه

للنهاية من غير هوادة أولين . ثم نعرف ايضا أننا مضطرون لان نمنع الصبي من الالعاب الرياضية التي تستلزم مجهودا اذا كنا لانستطيع ان نجعله يغتسل ويفرك جسمه حتى يجف وحتى يعاون الدورة الدموية فتنشط تحت الجلد مباشرة . وبمعنى آخر نحن نرفض ان نخضع لمشورة لاتصل الينا من اخصائي مهما كانت النتائج التي تترتب على ذلك

وقد ترتب على ذلك فعلا بعض نتائج لأني أذكر أني اصطدمت بأم من هذا القبيل فمنعت ابنها عن أن يغشى معهدنا . وكل ذنبنا في ذلك أننا حتمنا على هذا الصبي ان لايلعب بملابسه العادية . فكان يخلعها . ولما علمت الأم بذلك منعت ابنها إلا إذا قبلنا ان نتركه بملابسه كما هي فيلعب فيها ؛ وهذا بالذات مارفضنا أن نأخذ به : فانقطع هذا الصبي عن قسم الصبيان رغما عن علاقة الصداقة التي تقوم بيننا وبين أبيه وعائلته ؛ ولقد تراودت مع هذه العائلة كثيرا بعد ذلك ؛ ولكن مايزال الصبي متألما من الزكام والبرد ومازالت أمه تكوم الاقمشة المختلفة فوق بدنه ؛ ومازلنا نحن عاجزين عن ان نفعل شيئاً

هذه ناحية واحدة اذن للصعوبة التي تعترضنا . وهي ناحية واحدة من صعوبة واحدة بين صعوبات جمة ؛ وأما الناحية الاخرى من المسألة فهي آتية من الصبيان أنفسهم . فهم ايضاً يفضلون أن لايستنقعوا اذا استطاعوا الى ذلك سبيلا يحبون أن يراوغوا ويتهربوا ولا لوم عليهم في ذلك لان للماء البارد سمعة رديئة عندهم أولا . وثانيا لأن لهذا الماء لذعة خفيفة حتى وان كان الوقت صيفا خصوصا عند اولئك الذين لم يعتادوا الاغتسال بالماء البارد . وكل مايقبلونه ويرتضونه هو أن يبللوا وجوههم ورءوسهم واما ماعدا ذلك فليس من الامور المستحبة عندهم هذا في مبدأ الامر . أما بعد ذلك . بعد أن يكونوا قد تمرسوا على الانظمة واختبروها وعلموا أنها تعمل لخيرهم لاغير فلا تعود هنالك صعوبة مطلقا . بل تنحصر مأموريتنا

فى ان نجعلهم يقتصدون ما أمكن فى مكوثهم تحت ميازيب الماء وإلا يطيلوا زمن تعرضهم للرذاذ لأن الاطالة فى هذا التعرض مضرة كما يقول الطبيب

من هذه العوامل نجمت حالتنا التى نحن بصددها والتى أوردناها تحت باب الطاعة وان كان يجوز ان توضع تحت غيره من الابواب

انضم لعضوية قسم الصبيان صبى فى الخامسة عشر من عمره مديد القامة اصفر الوجه نحيل البدن تكاد تجزم أنه فى حاجة الى غذاء وهو فعلا فى حاجة الى الغذاء وان كان منزله يفيض به . انضم هذا الصبى اذن لعائلتنا واخذ يشترك معنا فى الالعاب الخفيفة التى لاتطلب حركة سريعة أو مجهودا كبيرا . وخيراً صنع لأننا لم نكن لننصحه بالاشتراك فى مثل هذا المجهود من دون ان يكون بدنه قد اعتاد الحركة والنشاط ومن دون ان يكون قد تدرج فى الحركة والنشاط

ثم تولدت فيه الرغبة للالعاب القوية السريعة وشعرنا نحن ان جهازه الجسمانى قد تكيف بشكل يجعله يستفيد من مثل هذه الالعاب فسمحنا له بأن ينال قسطه منها . خلع ملابسه الخارجية اذن وارتدى ملابس الالعاب فوق الملابس الداخلية وخرج الى الملعب الرياضى وكان ذلك فى أشهر القيظ والدنيا توشك ان تشتعل من الحرارة . فدعوته الى واخبرته انه لايستطيع ان يلعب بهذا الشكل وهو مرتد نفس الملابس التى سوف يخرج بها فى عرض الطريق واقنعته بعد بحث كثير ان هذا مضر بصحته . فكان دفاعه الذى لايبغى عنه تحولا أن هذا العمل قد يعرضه للبرد والزكام . ولكنه اقتنع على كل حال وانتصح بنصيحتى . ثم لعب

فرغ من اللعب ودخل مع الداخلين ليبدل ملابسه وتبعتهم حتى أحمل من لم يستحم منهم على الاستحمام . فوجدت بضعة منهم يوشكون ان يرتدوا ملابسهم العادية من دون أن يغسلوا أبدانهم فأخذت الاهبة وأجمعت أمرى على ان أقابل هذه الحالة واتغلب عليها فى الحال حتى لاتتعرض أبدانهم أوصدورهم لبعض النزلات الشعبية أوغيرها

ونحن نعلم من الاختبار أولا ومن قواعد التربية ثانيا ان التربية لاتجدى اذا كانت بالجملة بل يجب ان تكون بالتجزئة وتتناول الصبيان أفراداً وليس جماعة . لان الجماعة — وخصوصا متى كانت مؤلفة من صبيان صغار — من شأنها أن تشجع الفرد وتشد من عزمه فيوغل فى الخطأ استنادا على روح الجماعة وما أسرع ما تخلق المربى فى جميع روح العصابة Gang Spirit اذا لم يتحرز ويتشدد فى تصرفه معهم واذا لم يتريث ويحتال حتى لاتنبت مثل هذه الروح . وخير مايفعل المربى ان يأخذهم منفردين اذا كانت تلك الروح توشك ان تتكون على مبادىء غير مرغوب فيها ولاغراض غير منتجة وغير نافعة لتكوين شخصياتهم . ولكن كيف يتسنى لى فى هذا الظرف بعينه أن أعالج هؤلاء الصبيان منفردين ؟ هل انتحى بكل ناحية منزوية فى مكتبى وأتحدث اليه ؟ لم يكن ثمة مجال لذلك لانهم أما ان يغتسلوا فى الحال أولا يغتسلون مطلقا فى هذا الظرف . وبمعنى آخر لا يتسع الوقت للاخذ والرد . فكان من المتحتم على اذن ان أبدأ كلامى ونصائحى وأبدأ فيها من أى طرف ومع أى صبى . ولم يكن لى الا ان أتخير أحدهم وأبدأ به ؛ ولانه لم يكن لى معرفة بنفسيات هؤلاء الصبيان بالذات لانهم حديثى العهد بمعهدنا لم يكن أمامى الا ان أعالج واحداً منهم كيفما اتفق فان نجحت معه عالجت غيره ولكنى اصطدمت بعقبة كأداء فى مفتح الطريق

تقدمت الى صبى وقلت له

— اغتسل قبل ان ترتدى ملابسك

— لا . . . . (قال هكذا بلغة جافة شديدة قاطعة من غير ان تصحبها رنة اعتذار)

فقلت كيف ذلك ؟

فقال . لا — موش عاوز . . . .

وكانت جافة أيضا من غير تلطف فى القول . . . . قالها بشكل جعلنى افهم انى

انا المقصودة بهذا الرفض وليس الفعل ذاته ، وبعبارة أخرى التي الكلمة في وجهي كأنه يتحداني . فصمت قليلا لاقلب المسألة في عقلي علني اهتدي الى اسباب هذا التحدي ولكني لم اهتد لتلك الاسباب لانها غير موجودة أصلا ، فانه لايعقل ان صبيا يتحدى رجلا مسئولا له بعض السلطان عليه هذا مع العلم انه لاداعي مطلقا لهذا التحدي . فهو اذن ليس تحديا رغما عن كون تصرفه يدل على ذلك ورغما عن ان باقي الصبيان نظروا الى هذا الفعل على انه تحد مقصود

تبين هذا لي بعد أن حللت الظروف والظواهر بقدر ما استطعت ان احللها فلم يكن لي في هذا الظرف الا أن اتبع العقل والمنطق والا أن اهزأ من العاطفة الغليظة التي كانت قد تملكتني ، قررت للتو والساعة ان تصرفه برئ ، وانه لايقصد الى العصيان أو الى التحدي ، ولم يتبق لي اذن سوى أن افهم الاسباب التي من اجلها يرفض أن يغتسل ، وهذه الاسباب مجهولة وهو لا يريد الكشف عنها أو لا يستطيع ذلك . وعلى أي حال لم يكن ذلك الوقت انسب الاوقات للبحث وراءها وعلى هذا تركته من غير كلمة أو اشارة وذهبت الى غيره وتحدثت اليهم على مسمع منه ومرأى

قلت لغيره — يحسن بك ان تستنقع فقال كلا . وهكذا كلمت ثالثا ورابعا ولكنهم امتنعوا جميعا عن ان يقبلوا . فزاد الحرج في صدري واسفت لهذا الظرف الذي صادفني ، خصوصا وقد شعرت أن جميع المشاهدين حملقوا في وجوه بعض كأنهم يستوحون بعضهم عما يتبع هذا التصرف الذي لم يكونوا يفهمونه الا على انه تحد صريح

قلت ، فليكن ، وانصرفت مثقلا بالشعور ان المعضلة في الواقع لم تنته ولكنها ابتدأت

وبعد أيام قابلت الصبي فدعوته الى وداد الحديث الآتي :

ـــ كيف حالك ؟

ـــ الحمد لله

ـــ وما رأيك فيما حدث تلك الليلة

ـــ ما هو ؟

ـــ رفضك بطريقة عليها مسحة القطع والبت ان تغتسل

ـــ انى اخشى الماء البارد

ـــ هذا حسن ولكن ما قولك فيما ترتب على ذلك

ـــ وماذا ترتب عليه ؟

ـــ ترتب عليه رفض الجماعة كلها ان تنتصح بنصيحتى، ماذا كنت تقصد بالضبط هل كنت تقصد ان تتهرب من الاغتسال لاغير أم كنت تريد ايضا ان لايغتسل غيرك ؟

ـــ لم اكن ارمى الى شيء من هذا مطلقا

ـــ انى اميل الى تصديقك . ولكن هذا بالضبط ما ترتب على امتناعك أولا وعلى الطريقة التى بها امتنعت ثانيا . فهل فكرت قليلا فى هذا الامر بعد ان انصرفت الى منزلك ؟

ـــ نعم فكرت واسفت لهذا الظرف وشعرت بحروجة الموقف وتمنيت لو لم افعل . ثم انى قررت بعدها بزمن قصير انى اخطأت وانه كان يجب على ان لا امتنع وليس هذا فقط ولكنى آليت على نفسى ان اغتسل بعد كل لعبة كما تفعلون فى هذا المعهد

ـــ كفى فنحن متفقان وما زلنا صديقين

ـــ شكرا وسوف ترى منى ما يسرك

قد يقول القارىء : هذا حسن ولكن ماذا عملت لجميع هؤلاء الصبيان الذين شاهدوا هذا التحدى أو الذين شعروا ان خطأ أو صوابا ان صبياً تحدى مربيه

من غير ان يكون لهذا التحدى المزعوم نتائج تترتب عليه ؟ الم يكن يجدر بالمربى ان يقدم لهؤلاء الصبيان درساً فى الطاعة مثلا ؟ الم يكن ينبغى على المخطىء ان يشعر هؤلاء بأنه أخطأ وبأنه تصرف تصرفا معيباً وبأنه آلى على نفسه ان لايعود الى مثل هذا التصرف ؟ تجول هذه الاسئلة وأمثالها كثير فى خواطر القراء ، ولست أنكر انها جالت فى خاطرى مرة من المرات فبحثتها مع نفسى وحللتها ووصلت فيها الى نتيجة مرضية

وقبل ان نجيب على هذه المسألة ، أو بعبارة أخرى لكى نجيب عليها بطريقة معقولة يحسن بنا ان نجيب على هذا السؤال ، ماالغرض من وجود هؤلاء الصبيان فى هذا المعهد من الأصل ؟ هل التحقوا به لكى يعلموا ان له مديراً وانه يجب عليهم ان يخضعوا لهذا المدير ويطيعوه ؟ أظنه من المتفق عليه ان غرضا كهذا لايصح ان يجول بخاطر أى انسان ، فاحرى بهم ان لايلتحقوا بهذا المعهد ولا يعرفوا مديره او يخضعوا لهذا المدير ويطيعوه من ان نوجدهم فيه ونؤاخذهم بهذا الخضوع وتلك الطاعة ، فالمعهد لم يوجد للمدير وانما للصبيان ولن يمكن ان يكون الأمر بخلاف ذلك

ولا يمكن ان يكون قد وجد لمعاقبة المذنبين فيه لأنه يكفى ان لايوجد أصلا فلا يوجد فيه مذنبون ، لابل نحن نوقن ان لامذنبين فيه لانه ليس اصلاحية للاحداث وان كان يحاول ان يصلح من الاخلاق مااستطاع الى ذلك سبيلا ، وبمعنى آخر لم يؤسس هذا المعهد على شىء سلبى ، أو على مقاومة بعض أنواع التصرف ، وانما وجد لكى يكون ميدانا للنشاط الايجابى — ذلك الضرب من النشاط الذى عليه تتوقف الاخلاق بجملتها وتفاصيلها — وكل مانسعى اليه اذن هو ان نوجد البيئة الملائمة للصبى لينشط ويفعل فيبنى اخلاقه بمقتضى ذلك النشاط ، وبمعنى آخر اننا لا نقبل الصبيان لنعاقبهم متى سرقوا أو كذبوا أو عصوا

بل نقبلهم وفى نفس الوقت نحاول اصطناع البيئة بشكل لايترك لهم مجالا لهذه الامور فلا يفعلونها أصلا . واما اذا ارتكبوها فيجب أن نرجع الى نفوسنا نحن المربين حتى نصلح من طرائق معالجتنا لهم أولا وحتى نغير من عوامل البيئة ثانيا . وليس يعنى هذا اننا لانقاوم هذه النقائص . وانما كل مانرمى اليه هو ان المربى يجب ان يرجع الى نفسه والى البيئة والظروف التى اصطنع قبل ان يعود باللائمة على من هم فى عهدته وتحت رعايته

انا أعلم ان هذا الكلام لايروق كثيرين من المربين ، ولكن ماذنب الكاتب فى هذا ؟ ماذنبه وهو لايأخذ فى هذا الا برأى أئمة التربية المجددين أولا وباختباراته وتجاربه فى التربية ثانيا ؟ ثم هو يشعر بعد اطلاعه وتجاربه ان كثيراً من المعضلات التى تقوم بين الطفل والمربى انما منشأها فى الأصل من المربى . وان هذا الأخير لو رجع الى نفسه وحاسبها ودقق فى هذا الحساب لوجد انه هو الملوم الى حد كبير ، وانه لابد واجد فى مزاجه وميوله وتصرفاته مايبرر بعض تصرفات الاطفال

فليس اذن من الأمور المهمة أن يعلم الصبيان ان الطاعة واجبة عليهم أو ان المربى قادر أو غير قادر على الاقتصاص منهم ومن المذنبين ، وانما المهم أن لايعصوا فيما يعود عليهم بالخير ، والمهم أيضاً أن يكون لهم من قوة الشخصية وعناصر النفس الابية مايجعلهم أن يعصوا ويقاوموا أيضاً متى كان العصيان والمقاومة واجبين عليهم ، وبمعنى آخر يجب الا يكون الغرض من التربية الزام الصبيان بالطاعة لاى سبب من الاسباب بل تجنيبهم للاخطاء التى تعود على اخلاقهم بالاضرار ، وبعد ذلك ليعصوا ماشاؤا أن يعصوا ، فالطاعة اذن ليست غاية فى نفسها وانما هى وسيلة لشىء آخر . ومتى استطعنا أن نصل بالصبيان الى هذا الشىء الآخر من غير أن نلزمهم بطاعتنا فليكن . ولنسلك تلك السبل

بعد هذا نستطيع نجيب على السؤال الاول وهو : ماذا عمل لهؤلاء الصبيان ؟ نجيب على هذا السؤال بالقول أنه لم يعمل لهم شيء على الاطلاق . وهم لايدرون شيئا عما تم بعد الحادثة أما اذا خطر لاحدهم أن يتحدى على هذا النسق فستكون حالته خاصة وستعالج على أنها كذلك

اذن فليحملوا هذه الحادثة على أى محمل يريدون . وليس لانسان مهما كان ذاسلطان أن يتدخل فيما بين الصغار وبين شعورهم . وليس لنا فى الواقع تدخل الا فى تصرفاتهم . ثم يجب الا نتدخل فى هذه الا بقصد توجيهها الى الوجهات التى نظن أنها صالحة . وبمعنى اخر لايجدر بالمربى أن يحاول منع بعض التصرفات بل يجب عليه أن يوجهها ويسددها الى غايات عالية